الطيب ولد العروسي

أعلام من الأدب الجزائري الحديث

دار الحكمة

الطيب ولد العروسي

أعـلام من الأدب الجزائري الحديث

دار الحكمة

عنوان الكتاب: **أعلام من الأدب الجزائري الحديث**
المؤلف: **الطيب ولد العروسي**
الناشر: **أحمد ماضي**
© دار الحكمة للنشر، الجزائر 2009
العنوان 91 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة 16000
الموقع الالكتروني www.hikmahouse.com
البريد الالكتروني dar_elhikma@yahoo.fr
الهاتف 00 213 21 23 58 83
الفاكس 00 213 21 23 58 89
رمدك: 978-9947-842-57-7
الإيداع القانوني: 2009-2057

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

تقديم الدكتور عبد القادر شرشار

فرض الأستاذ الطيب ولد العروسي نفسه من خلال الصحافة الوطنية والعربية والأجنبية كناقد مهووس بالبحث عن الجذور الإبداعية الأصيلة وإسهامات الكتاب الجزائريين في المجالات الأدبية والفكرية والفنية، وقد مكنته وظيفته في معهد العالم العربي بباريس من ربط الصلة بالنخب العربية والأجنبية على حد سواء، كما أن إشرافه المباشر على مكتبة المعهد جعله يركز كل جهده على البحث والكتابة، وقد وجدنا في منتوج الرجل من خلال قراءتنا لكتاباته المتوفرة في السوق الوطنية وبعض ما حصلناه من خلال المجلات الدولية والكتب المطبوعة جامعيا متكاملا، ومثقفا شغوفا بالبحث.

يركز المؤلِّف على عينة من كتابنا وشعرائنا المحدثين ممن توفر فنهم على عمر مديد، من خلال ما تركوه من مادة أدبية وفكرية تنم عن جهد مثمر أعطى لحياتنا وجهها الفني الجدير بالبقاء، وفي طيات هذه المادة يذكرنا الباحث- باستمرار- أن الأدب الجزائري على الرغم مما يزخر به من أعلام، نما مهملا من النقد، لذلك فهو لا يختلف عن الذين يقولون :»إن أدبنا يمشي بقفاه، لأنه يحاول أن يتقدم وعيناه على الماضي.»

لا نبالغ إذا قلنا إن الأدب الحي في حاجة دائمة إلى أمة حية، ولعل هذا ما كان يردده أعلام هذا المؤلف باستمرار، فقد ناضل محمد بن شنب من أجل بعث الحياة في الثقافة الشعبية الجزائرية، وأحيا محمد بن براهيم ليالي شهرزاد من خلال حكاية العشاق، واستنهض مفدي زكريا الهمم من خلال قصيده المدوي :قسما بالنازلات، كل هؤلاء وغيرهم تطلعوا إلى ربط الصلة بين الفكر المتنور والأدب الحي، والأمة الحية المتطلعة إلى غد أفضل.

تهدف هذه الدراسات من بين ما تهدف إليه بعث واحد من أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم

سير رجالات صنعوا جانبا من تاريخ الجزائر الثقافي، إلى جانب الكشف عن إبداعات مجهولة لكتاب جزائريين- باللغتين العربية والفرنسية- نسيهم التاريخ أو سقطوا سهوا من مدونته، كشأن محمد بن إبراهيم صاحب حكاية العشاق، والباحث الأكاديمي محمد بن شنب ومالك حداد وعلي بن عاشور.

ولعل ما يجمع هؤلاء-بالإضافة إلى ما أشار إليه الكاتب في مظانه- هو أنهم شهدوا ولادة الاهتمام ببعض الفنون والتجارب الفنية، حتى لا نقول: إنهم كانوا الرواد فيها، كما هو حال محمد بن إبراهيم، ورضا حوحو، وبن هدوقة، ومفدي زكرياء وغيرهم ممن تدين لهم الأجيال اليوم في الجزائر، فلكل علم من هؤلاء فضل في ما تركه للأجيال اللاحقة.

هناك أسئلة في النقد الأدبي في الجزائر تتصل بالمضامين التي يتأسس عليها والآليات التي يتوسل بها حين يستنطق النص الأدبي، تلك أسئلة ليست مما تتهيأ له التقديمات، «ولكن حول النقد أسئلة أخرى تستشرف المآل إذ ترصد الحيثيات القائمة بين النقد بوصفه حقلا معرفيا والسياق

الفكري الذي يصنعه الحدث التاريخي الأكبر»، ذلك أن الكتابة عن أعلام الجزائر في الأدب الحديث في هذا الوقت ليست نغمة نشازا أو تغريدا خارج السرب، كما قد يتوهمه البعض، بل لعله لهذا السبب بالذات يكتسب الحديث عن سير الأعلام ومأثور هم الأدبي والفكري شرعية إضافية، «ليس من باب الرجعة إلى الماضي، فذلك ما لا يكون.. ولكن من باب تلمس الخصوصيات التي بها تقوم الأمم والشعوب.»

إن عرض سير أعلام الأدب الحديث في الجزائر يرقى إلى أن يكون مستودعا لمعارف وخبرات وإبداعات تراكمت خلال فترة محددة من تاريخ الجزائر الحديث، اختزنت ما هو جدير بأن يفحص ويدرس ويتمثل ليستثمر في بحوث جامعية وبناء ثقافة وطنية حديثة لا تنتكس نحو الماضي ولا تتنكر له.

وللجزائر-والحمد لله- في تاريخها الحديث معين ثري من الإبداعات، تشهد على عطاءات الأجيال السابقة وأنماط سلوكها ورؤاها للحياة، ولها في هذا العطاء تنوع ثري يشهد

على الوحدة في التعدد وعلى التواصل الإيجابي مع ثقافات ولغات الأمم والشعوب الأخرى.

وإذ أقدم هذا المؤلف إلى المثقفين والباحثين وسائر القراء العرب، فإني آمل أن يجدوا فيه الفائدة المرجوة والنفع المأمول.

والله أسأل التوفيق والرشاد..

مقدمة

كتبت هذه «الدراسات» أو السير البيبليوغرافية على مراحل تاريخية متفرقة، يرجع بعضها إلى عشر سنوات خلت، وكان هدفي منها هو تقديم سير وأعمال بعض الأدباء الجزائريين إلى القراء العرب أو إلى أولئك الذين يقرؤون بلغة الضاد، وعلى رأسهم بعض الإخوان من المشرق العربي، الذين حينما كنت أحكي لهم عن المبدعين الجزائريين ومدى تفوقهم في بعض الميادين وبسبب ما رسخ في مخيلتهم -الجمعية أو الفردية- عن عدم مقدرة الأديب الجزائري على الكتابة بلغته العربية، كانوا يستمعون إلى ما أقول ويكتنفهم كثير من الحذر، وفي أحيان أخرى بكثير من التهكم، لكون أنها رسخت في مخيلتهم عدم قدرة الأديب الجزائري على

الكتابة بلغته العربية، ولا شك أنه مما زاد في ترسيخ هذه الفكرة هو النقاش، إن لم نقل الصراع - الدائر في الجزائر بين اللغة الوطنية من جهة، وأنصار اللغة الفرنسية من جهة أخرى، أو الجهة المقابلة كأنهما ضدان لا يلتقيان !! ونظرا لتضخيم هذا الصراع في الصحافة المحلية والميل إلى انتهاج طريق الشك والحذر، فقد تجاوز هذا الصراع الحد المعقول بين طرفي النقيض واتخذ أبعادا أخرى ليس هنا مجالا لسردها تفصيليا .

وقد ذهب بعضهم إلى اتهام اللغة العربية بأنها لم تنجب أدباء كبارا. لكل ذلك سعيت إلى أن «أدلي بدلوي» في هذه البئر العميقة، وتمخضّ هذا المجهود المتواضع عن هذه المادة التي أعتبرها مجرد خطوط عريضة تفسح المجال أمام غيري ليسعى لاستكمال هذا الجانب.

من جانب آخر أردت من هذه المحاولة أن أرد التهم الموجهة ضد اللغة العربية، خاصة على أولئك الذين يعتبرونها لغة قاصرة إن لم نقل أنها لا زالت تخطو خطواتها الأولى في الجزائر أو في الوطن العربي، حيث أنهم لا يستطيعون استيعاب حقيقة أن كثيرا من أعلام الأدب الجزائري قد

تركوا بصمات هامة سواء في الأدب الجزائري، أو الأدب العربي والعالمي.

مما لا شك فيه أن الأديب الجزائري كان مرتبطا بأحداث وطنه في كل المراحل التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، حيث تطلبت منه أن «يكون أو لا يكون» وقد حقق ذاته من خلال ما كان يصبو إليه الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال.

في تلك الفترة التي أشرت إليها آنفا كنت أكتب في مجلة «بريد الجنوب» التي كانت تصدر في «لندن» وتركزت بعض كتاباتي حول الأعلام الجزائريين وقد وجدت صدى جيدا من قبل القراء، وكان هذا حافزا شجعني على المضي في إنجاز هذا العمل.

وكان اختياري بكل صدق وأمانة يعود إلى ضرورة إثبات الذات الجزائرية، أي إعطاء القارئ فكرة مغايرة تماما لما كان يحوم حول الشخصية الجزائرية من أحكام قاصرة أو مسبقة وعن عقم العقول الجزائرية في الإبداع، وبالتالي اعتقادهم الخاطئ أن لا وجود لأدب عربي جزائري مكتوب

باللغة العربية. واستندوا في ذلك إلى أن بعض الكتاب الجزائريين كانوا يكتبون بلغة «بودلير» فقط. وما قمت به كان تعريف القارئ عن مدى تهافت هذه التهمة كأنها حقيقة لا نقاش حولها، وبينت بأن المبدع الجزائري وبرغم المحن التي كانت مفروضة عليه والتي كانت تأتي من قبل الآخر، بل وحتى «الأنا»، أي أن الظلم الذي حاق بالمبدع الجزائري كان يأتي أيضا من ذوي القربى، كما قال الشاعر « وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند».

بالرغم من أن الأديب الجزائري كان دائما يعانق التجديد والتطور والحداثة، إلا أنه كان متمسكا بهويته العربية، إذ أنه كتب بها وأبدع، أو حتى عندما أرغم على الكتابة باللغة الفرنسية فقد كانت لدى بعض المبدعين مجرد أداة أبدعوا بها ووظفوها في خدمة قضاياهم، وكانوا صادقين في مواقفهم ومبادئهم، كما نرى في الفصل الأول الذي خصصته «للدراسات» مع المبدع مالك حداد، الذي توقف عن الكتابة، وبالتالي عن نشر ما كتبه بعد الاستقلال عندما أعلن موقفه المعروف والمدوي من أن اللغة الفرنسية هي «منفاه» ولذا إما أن يكتب بلغة الأجداد أو يتوقف نهائيا

عن الكتابة، واختار الموقف الثاني الذي كلفه الكثير، ويكفي أنه توقف مقتنعا وهذا بالنسبة لمبدع في مستوى مالك حداد يعتبر انتحارا أدبيا حقيقيا.

كما نقف عند بعض الأدباء الرواد مثل محمد بن إبراهيم، الذي أنجز روايته الفريدة (أي ما عثر عليه حتى الآن) وهي «حكاية العشاق» والتي تعتبر أول عمل روائي لا على المستوي الجزائري فحسب، بل وحتى على المستوى العربي، نظرا للتاريخ الذي كتبت فيه، والتي سبقت رواية زينب لهيكل بـ 66 سنة، وهذه الرواية حققها الدكتور أبو القاسم سعد الله، وصدرت في الجزائر في نهاية سبعينيات القرن الماضي.

أما مع الأديب أحمد رضا حوحو فنخن أمام مبدع كتب في مجالات أدبية مختلفة، ويعتبر من الأوائل الذين قاموا بمبادرة في كتابة أول نص روائي بعنوان «غادة أم القرى» (قبل العثور على رواية حكاية العشاق) كما يرجع له الفضل في إرساء فن القصة القصيرة والمسرح في الجزائر وفي العربية السعودية حيث عاش فترة نهاية ثلاثينات وبداية أربعينيات القرن الماضي.

أما مع الدكتور محمد بن شنب، فنحن أمام علامة حقيقي، لأنه كان من بين أوائل الأكاديميين الجزائريين، وهو أول جزائري نال شهادة الدكتوراه من جامعة الجزائر أيام تحكم الاستعمار الفرنسي فيها، وهو أول من بذر النواة الأولى في دراسة الأدب المقارن في الجامعة الجزائرية والترجمة إضافة إلى معرفته وإلمامه بكثير من اللغات الأجنبية.

أما عبد الحميد بن هدوقة فقد كان من بين الذين أرسوا فعلا القواعد الفنية لانطلاق الرواية المكتوبة باللغة العربية في الجزائر، وكانت له مساهمات في المسرح والصحافة وله أراء جد منطقية في مسألة التعريب، وفيما حل بالبلد من مشاكل وهموم خلال أحداث أكتوبر 1988 وما تلاها فيما بعد.

ويعتبر الشاعر مفدى زكريا مؤلف النشيد الوطني الجزائري، «قسما بالنازلات الماحقات» هو من المبدعين الذين قرنوا النضال بالممارسة العملية، وألف إلياذته الشهيرة عن الجزائر، هذا إضافة إلى الهم العربي والمغاربي الذي كان يعتبره أحد رسائله التي عمل كل ما في وسعه على إيصالها

للناس، لذا يبقى واحدا من بين أولئك الذين عبروا عن ثورة التحرير الجزائري.

الفصل الثاني من هذا الكتاب يحتوي على «لقاءين» كنت قد أجريتهما مع كل من رابح بلعمري الذي كاد أن يحصل على جائزة «غونكور» لسنة 1987، والذي ألف عدة كتب باللغة الفرنسية، والناقد علي بن عاشور، الذي كان قد خطا خطوات متقدمة في دراسته للطب في الجامعة السورية، إذ وصل إلى السنة الخامسة، ثم تركها ليعانق النضال والصحافة ويدخل إليها ما سمي بعد ذلك «بالتحقيق الصحفي» كما عرف بنقده لبعض الأدباء الذي كان يخيف أكبر المبدعين في العالم العربي آنذاك، وكان يحسب لكتاباته ألف حساب.

وهنا نلاحظ أن كل مبدع على حدة يتميز بتفوقه في مادة أو عدة مواد وكان هذا التميز قاسما مشتركا بين الجميع، و هناك قاسم مشترك ثان لسوء الحظ يجمعهم هو أنهم كلهم في دار الحق، رحمهم الله جميعا.

أقدم هذه الأعلام دون «رتوشات» أو تغيير، وأضعهم بين يدي القارئ الكريم كما نشروا في الصحافة، ما عدا

موضوعي محمد بن إبراهيم ومالك حداد اللذان أنجزتهما منذ أشهر. وأنا مستمر في الكتابة عن أعلام آخرين لا يقلون أهمية.

حاولت أن أدرس كل علم والوقوف على أهم المراحل التاريخية والفكرية التي مر بها، واعتمدت على ما كتبه وما كتب عنه قدر المستطاع، من أجل أن يكون للقارئ نظرة شاملة عن كل مبدع من هؤلاء، وأشرت لما أخذته من المصادر والكتب في متن النص، وهي طريقة أملتها علي أمانة الكتابة، وأتمنى أن لا تتعب القارئ كثيرا.

يشعر الإنسان الذي تغرب عن وطنه مثلي وخاصة لدى احتكاكه بالآخر وحتى مع بني جلده الذين يؤولون الحقائق ويسايرون دائما التوجه السلبي الذي ينتقد للنقد فقط، أو يصدر أحكاما عامة لا صلة لها بالمعطيات الموضوعية، ولا بالواقع المعاش إذ أنهم يتصورون الساحة الأدبية الجزائرية وكأنها صحراء قاحلة، وأن من كتبوا باللغة العربية ما هم إلا «رجعيين أو غير حداثيين» يشعر بقصر هذه النظرة وتحاملها وانعدام موضوعيتها، وبأنه مطالب أن يصحح بعض هذه النظرات المملوءة حقدا، والمسايرة للآخر، والمؤدلجة في

غالبيتها العظمى، وربما كان هذا دافع آخر التزمت به سواء في توجيه الباحثين الذين بحكم عملي قمت بمساعدتهم من أجل اختيار أدباء وشعراء ومبدعين جزائريين كثر في شتى مجالات المعرفة والذين يستحقون الاعتناء بهم أو نقدهم أو الافتخار بما قدموه من مساهمات في ميادينهم التي اختاروا التخصص والعمل فيها، وتحضرني هنا قصة باحثة جزائرية كانت تريد أن تقدم «رسالة الدروس المعمقة» في جامعة السربون في مجال الإعلام، وكنت قد نصحتها بأبي اليقظان، وكان بالنسبة إليها اكتشاف واعتبرته موضوعا مميزا، غير أنها لما فرغت من إعداد بحثها الذي وافق عليه أستاذها المشرف وناقشته واجهت بعض المشاكل مع أحد الأساتذة المشرفين على رسالتها، لأنه لم يتقبل قولها بأن أبا اليقظان كان من الأوائل الذين أنجزوا الصحافة المكتوبة في البلد، كما أتذكر قصة أخرى مع باحث جزائري كنت قد نصحته بتحضير دراسة عن الشاعر رمضان حمود، ولدى مناقشته لرسالته قال بأن الشاعر رمضان حمود كان أول من دعا إلى قصيدة النثر، وكتب رسائل إلى أمير الشعراء يطلب منه السماح له بالخروج من سجن الشعر العمودي الذي سجن الشعراء أنفسهم فيه، وكان أن أثيرت ضجة لدى مناقشته هذه

القضية، إذ كانت بالنسبة للأساتذة تيمة أن هناك مسلمة لا يجب الخروج عنها، وهو أن الشعر الحر بدأت بوادره في منطقة أخرى غير الجزائر، لكن الباحث أقنع أساتذته وأتي لهم بوثائق تدعم ما ذهب إليه. أو أحد الباحثين الذين عملوا على التحقيق في أول نص روائي جزائري، ألا وهو «الحمار الذهبي» لأبوليوس، الذي ترجمه الأديب الأستاذ دودو، والذي كان يعتبره الباحث اكتشافا وكان بالنسبة للحضور مفاجأة كبرى.

كل هذه المواضيع وغيرها كانت تجد استغرابا وأحيانا رفضا من قبل المشرفين على الطلبة الجزائريين أو من يقومون بدراسات حول الأدب الجزائري، إذ أنهم يعتقدون أن المبدع الجزائري الذي يكتب باللغة العربية لم يأت بأي جديد وبأنه يكتب بلغة أكل عليها الدهر وشرب، لكننا عندما نبحث بين دفات الكتب نجد نماذج تؤكد عكس ذلك تماما. وأخرى لا شك أنها تسير في خط التقليد الأعمى والتحجر البغيض، ولكن ذلك لا يقتصر على الكاتب الجزائري فقط، بل على الكثير من المبدعين في العالم.

نظمت المادة حسب الترتيب الزمني، أي بتاريخ ميلاد ورحيل الأعلام التي تطرقت لها.

أقدم شكري الجزيل للأستاذ عثمان عبد المجيد الذي راجع النصوص والصديق الدكتور عبد القادر شرشار الذي كان دائما يشجعني على نشر هذه المادة وعلى تقديمه لهذا الكتاب.

دراسات

محمد بن إبراهيم
في روايته «حكاية العشاق»
قبل 66 سنة من رواية زينب لهيكل

محمد بن إبراهيم
في روايته «حكاية العشاق»
قبل 66 سنة من رواية زينب لهيكل

مرت الرواية المكتوبة باللغة العربية نظريا في الجزائر بمرحلتين حسب النقاد: مرحلة التكوين التي تبلورت مع أحمد رضا حوحو، الذي كان له الفضل في وضع اللمسات الأولى لمحاولة كتابة الرواية والقصة والمسرح في الجزائر والسعودية، حينما أجبره الاستعمار الفرنسي هو وأسرته على مغادرة الوطن والاستقرار في السعودية لمدة عشر سنوات، أتاحت له رغم المعاناة فرصة نشر بعض كتاباته في مجلات سعودية وعربية، وكان ذلك في نهاية الثلاثينات وبداية

أربعينات القرن الماضي، لذا كان يعتبر من الأوائل الذين أدخلوا فن كتابة الرواية والقصة في كل من البلدين.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة النضوج الأدبي إذ ترسخت مع كتابات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، ومنذ ذلك الوقت انطلقت الرواية لتشهد أعمالا جيدة وأخرى أقل جودة وبعضها لم يحالفه النجاح. لكننا بقراءتنا لرواية «حكاية العشاق في الحب والاشتياق» لمحمد بن إبراهيم نجد أنفسنا أمام بدايتين عربية وجزائرية:

كتبت «حكاية العشاق» قبل رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل، بستة وستين عاما، وهي التي يؤرخ بها كبداية للرواية العربية. غير أن حكاية العشاق تدحض تلك المقولة المتداولة حتى يومنا هذا، إذ أننا أمام عمل يحتل المرتبة الأولى بحكم تاريخ كتابته، حتى وإن لم يتسم بالنضج الأدبي لكنها محاولة تحترم البنى وأساليب السرديات التي كانت سائدة آنذاك. أما البداية الأخرى بالنسبة للرواية في الجزائر، والتي تطرح نفسها كأول عمل دون منازع، حيث أنها أسست للبداية، التي لم تكن مع رضا حوحو كما هو متداول لدى النقاد والمهتمين بالأدب الجزائري.

لكن السؤال المحير هو أن حكاية العشاق رغم أنها حققت ونشرت سنة 1982 في الجزائر، لم تجد الاهتمام الكافي الذي تستحقه كحدث أدبي عربي وجزائري يستحق الوقوف عنده طويلا؟

يبدو أنها أسالت مدادا كثيرا من قبل طلبة الماجستير والدكتوراه في الجامعات الجزائرية، ولكن أعمالهم لم تصدر حتى الآن في كتب، وهو شيء يدعو للحيرة والقلق، إذ أن عملا كهذا يبين بأن المبدع الجزائري كان مطلعا على ما يكتب في جميع الميادين، وأنه يساهم بدوره في هذا المجال، ولا شك أن مؤلف «حكاية العشاق» يعد مثلا واضحا لهذا التأثر وبحكم الواقع الاستعماري، قرأ ما كتب أدباؤه وقام بدوره بتأليف هذا العمل السردي اللافت للانتباه، ولعل هذا ما يؤكد البداية التي ظهرت من خلال احتكاكه بعالم كانت الرواية فيه قد قطعت أشواطا مهمة، وفي العالم العربي لم يكن يكتب إلا في أمور الدين والشرع والشعر، فهذا الاحتكاك وبالرغم من أنه كان عدائيا واستعماريا إلا أنه من ناحية الكتابة أدى بمحمد بن إبراهيم لإنجاز عمله وباللغة العربية.

يبقى السؤال هو كيف تولد رواية في بلد غير رأسمالي؟ أي أنها لم تتوفر لها التربة التي توفرت لقرينتها في أوروبا؟ وهنا لا بد من أن نقول أنه بالإضافة لما تقدم قوله من احتكاك استيطاني وقمعي، إلا أننا نجد وسط هذا التناقض قد أتت ولادة رواية حكاية العشاق، وأن العمل الإبداعي هو إحساس إنساني يمكن كتابته في أي مجتمع وفي أي مكان، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتضح لنا أن محمد بن إبراهيم قد اطلع على كثير مما كان يكتب آنذاك في الغرب والعالم العربي، وأنه استفاد من تجارب المستعمر الإبداعية وألف روايته، والشيء الذي يحسب له ويبين مدى تمسكه بلغته الأم، كما يعكس تطلع الإنسان الجزائري إلى استقلال بلده مهما كانت التضحيات وكان التزام ابن إبراهيم بهذا الخط التزاما مطلقا وتعبيرا عن روح الشعب الجزائري وتطلعه إلى أن يتبوأ مكانه تحت الشمس مع شعوب العالم، أي أن هدف طرد الاستعمار من الجزائر كان هم كل الجزائريين بمختلف شرائحهم ومستوياتهم الاجتماعية، لذا فتأليف مثل هذا العمل يعد مبادرة رائدة باللغة العربية ويشير إلى دلالات مهمة في ذلك الزمن، والذي دأبت فيه فرنسا على ارتكاب

كل شيء من أجل محو الهوية الجزائرية لغة وأرضا وتاريخا وحتى جغرافيا.

وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرواية مؤخرا في بيروت، عن دار الغرب الإسلامي، ضمن الأعمال الكاملة للدكتور أبو القاسم سعد الله، ضمن سلسلة «تحقيق التراث» المجلد الرابع عشر.

يقول المحقق «وتقع المخطوطة، وهي النسخة الوحيدة التي اطلعنا عليها، في 10606 ورقات ...مكتوبة بخط جيد تغلب عليه العبارات الانتقالية مثل قال صاحب الحديث، ومثل فلما فرغ من شعره الخ...والنص مكتوب بالنثر البسيط الذي يتخلله السجع ويحتوي على عبارات عامية كثيرة وتراكيب عامية أيضا، وفي النص أشعار متفرقة تبلغ أحيانا القصيدة طولا، وهي بالعامية المهذبة وفيها عبارات فصيحة وأحيانا شطرة كاملة أو بيت من محفوظات المؤلف... فالمؤلف يبدو متمكنا من الثقافة العربية القديمة».

إذن نحن أمام نص كتب وحفظ في نسخة واحدة، «تحمل رقم 11923923 بالمكتبة الوطنية بالجزائر» ولكنه

يصف طريقة الكتابة التي دونت بها، فعنوان الرواية باللون الأزرق، أما داخل المتن فالنثر مكتوب بخط أسود والشعر بخط أحمر، وهو قارئ جيد للأدب العربي القديم شعرا ونثرا حيث استوحى منه نصوصا كثيرة طوعها لخدمة عمله الإبداعي.

ترى ما هو الجو الذي ولد فيه المؤلف؟ يبدأ المحقق في الحديث عن إبراهيم ووالده الذي ولد في الجزائر العاصمة سنة 1796 حيث ورث عن أبيه الداي مصطفى باشا (والجدير بالذكر أن المستشفى الكبير الموجود في عاصمة الجزائر لا يزال يحمل اسم الوالد، مما يدل على مكانته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية) والذي قتل سنة 1805 أموالا طائلة وأملاكا عقارية وأراض زراعية، وقد مارس إبراهيم التجارة شأن أعيان الحضر، أمثال حمدان خوجة (مؤلف كتاب المرآة الذي يعتبر مرجعا مهما في تاريخ الجزائر، ترجمه الدكتور محمد العربي الزبيري إلى اللغة العربية وأصدره في الجزائر) وأحمد بوضربة، وكان عمره حين قتل والده تسع سنوات وتزوج في السابعة عشر من عمره، وكانت صلة إبراهيم بحمدان خوجة وثيقة تجاريا وسياسيا. «فوالد المؤلف بالإضافة إلى

عمله التجاري كان يحرض على مقاومة الاحتلال وأنشأ جمعية أطلق عليها اسم «لجنة المغاربة الخضر» التي كان من خلالها ينتقد الاستعمار وأذياله في الجزائر، الشيء الذي أدى بالسلطات الاستعمارية إلى ترحيله من العاصمة إلى عنابة حيث لفق له حكما بالسجن حتى وافته المنية سنة 1846».

أما المؤلف محمد بن إبراهيم فقد ولد سنة 1806 بمدينة الجزائر، وتفتحت عيناه على هذا الجو النضالي الرافض للاستعمار وقام بتأليف عمله هذا وكان «فوق سن الأربعين بقليل، ولا نعرف إن كانت له آثارا أدبية وتاريخية أخرى، ويبدو أن رجلا يمتلك مثل قدرته واطلاعه لا يمكن أن يكون له إلا مثل هذا الأثر».

توفي محمد بن إبراهيم «بتاريخ 08/ 04/ 1886، و كان «في موكب جنازته جمهور غفير، وكان الحاكم العام عندئذ قد أرسل نيابة عنه رئيس مكتبه، و بالإضافة إلى أعيان المسلمين شارك في تشييع الجنازة عدد كبير من أعيان الأوروبيين، وأقيمت عليه صلاة الجنازة في جامع البحرية ومنه أخذ النعش إلى مقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي حيث مدفن أبوه مصطفى باشا».

وكما نلاحظ فهو من أسرة عريقة ومعروفة، غير أن وفاة والده أربكت أوضاعه المادية، إضافة إلى السرقة التي كان ضحية لها، والتي كانت نتيجتها اهتزاز وضعه المادي، يقول المحقق «لا شك أن ضياع مجد الأسرة ومعاناة والده سياسيا وماديا وتدهور أحواله المعنوية والمادية قد دفعته إلى كتابة «حكاية العشاق» الشيقة التي تعبر عن مأساة أمير هو المؤلف نفسه».

فماذا تحكي هذه الرواية، أو هذه «القصة» كما يصنفها المحقق أحيانا، وأحيانا رواية وهي تتألف من 122 صفحة.

تتكون حكاية العشاق من معطيات فضائية واجتماعية وسياسية وحضارية، وما يلفت انتباهنا لدى قراءتنا لها، هو بنيتها الهندسية، إذ نجد راويا يروي لنا تطور الأحداث عبر مرآتين متكاملتين، حيث يضع عائلتين داخل إطار اجتماعي أولهما ابن الملك (بطل الرواية) الذي كما سبق وأشرنا من أسرة ذات شهرة كبيرة وهو سليل عائلة كانت قد حكمت الجزائر وذات نفوذ كبير فيها، وفي الجانب المقابل، زهرة الأنس (بطلة الرواية) ابنة تاجر مهم توفي في إحدى رحلاته

ومهماته، وهي يتيمة الأم أيضا، فبالإضافة إلى حسن قدها وجمالها، فهي تمتلك موهبة نظم الشعر إضافة إلى تحررها وذكائها وحسن مكانتها الاجتماعية، وكان ابن الملك قد أثار اهتمامها به منذ مدة حينما كانت خارجة في نزهة صحبة خادمتها «خريف الصيف» ومجموعة من أفراد عائلتها، حيث رأته وتمنت أن يكون حبيبا لها « والله إن زهرة لعاشقة فيك قبل ما تسمع بها أنت وتراها وهي ممحنة بحبك منذ أربع سنوات، وكانت قد رأتك في حياة أمها وتعلق قلبها بك، وهي تكابد العشق والغرام..» (ص. 53 من الرواية).

نحن في مكان فسيح محاط بالبساتين والغابات، يسكنه إلى جانب ابن الملك وزهرة الأنس الكثير من الناس، وعلى رأسهم «العطار» صاحب دكان الحي، وهو يعرف كل كبيرة وصغيرة من خلاله، بحكم اجتماع الناس عنده وتبادل أخبارهم وأمانيهم وأحلامهم وهمومهم، ويلعب دورا مهما في تقريب العشيقين عندما مر ابن الملك ذات يوم بالحي الذي تسكن فيه «زهرة الأنس» وسمع الغناء والموسيقى، طلب من العطار أن يعلمه عن مصدر ذلك، فوصف له صاحبته التي أثارت فضول ابن الملك وتمنى التعرف عليها،

وهنا يكون العطار وسيطا مقربا لعب دورا مهما لتقريبهما وكان دائما حاضرا وحريصا على تشجيع لقاءاتهما، إذ أنه كان يستفيد ماديا من عمله هذا، بحيث كان يجازيه ابن الملك وزهرة الأنس، لذا كان يعزز دوره ويكثر من تدخلاته حتى يزداد كرم الحبيبين تجاهه، ولما وقعت بعض المشاكل بينهما، تدخل شخصيا من أجل حلها، سواء بطلب منهما، أو بتدخل من خريف الصيف. لهذا فهو يعد شخصية محورية لارتباط والتحام هذه العلاقة الغرامية، بينما هناك شخص ثان كاد يسمم العلاقة بين العشيقين والمتمثلة في «البربري» الذي كان يزور زهرة الأنس مرتين في السنة، وهو يأتي من مدينة «دلس» الكائنة في شرق الجزائر، جاء ذات يوم وزهرة الأنس في أوج علاقتها مع حبيبها، ولما عرف ابن الملك قصته كاد أن يجن وغضب وأحس بنوع من الإهابة الشديدة، فابتعد عنها وعرفت علاقتهما منزلقا خطيرا كاد يودي إلى نهاية تلك العلاقة، لولا تدخل العطار و«خريف الصيف» ونادل ابن الملك لتعود تلك العلاقة إلى مجراها الطبيعي، كما كادت تصاب مرة أخرى عندما عاد البربري وبتحريض من عجوز شمطاء عملت كل ما في وسعها لتسمم هذه العلاقة الغرامية المثالية، غير أن كل المحيطين بالحبيبين كانوا يقظين

وسهروا على إبعاد البربري دون رجعة وعرف غرامهما بعد ذلك وصالا دائما وزواجا سعيدا.

كما أراد بعض معارف ابن الملك أن يردوه عن غرامه وأن يأخذ بنصائح والده ولكنه لم يكن «يصبر عنها طرفة عين ولا يستغني عنها من الله شيء، وذكروا أنه اجتمع ذات يوم مع ندماء أبيه، رحمه الله، فساروا ينهونه عن الهوى وينصحونه إلى أن قالوا له أين وصايا أبوك ونصحه لك؟ فأجابهم بأبيات من الشعر وقام وتركهم، حيث قال، عفا الله عنه:

لا تلومني في الحب من اللوم كف ولا تزيدونني قولا عن المدنف عف

اتركوني في غرامي وحبـي أحبتي لقولكم قلبي لا يفهم ولا يعرف

عندما يحدثنا الراوي واصفا الحالة النفسية للحبيبين وعن المراحل التي مرت بها علاقتهما، يكلمنا عن «زهرة الأنس»، ثم عن ابن الملك وعما كانا يعانيانه في نفس اللحظة ويفكران فيه، فإن كانا يمران بحالة توهج فهما يتنفسان نفس الحلم، وإن كانا في حالة بؤس وألم فهما يتقاسمان نفس المصير، وعندما يكتبان لبعضهما فهما يكتبان شعرا ويتكلمان

نثرا، أي نص الرواية مزيج من الشعر والنثر، مما يعكس هموم ورؤى وانشغال الناس في ذلك الوقت. وبالإضافة إلى الشعر نجد الغناء والطرب الذين كانا يتقاسمانه في لقاءاتهما بحضور أصدقاء من الجانبين، وكل ما طالت السهرة زاد تعاطي «الندامى» أي الخمرة، وفي بعض اللقاءات شرب حتى العطار الذي انقطع عن ذلك لمدة طويلة، لكنه تنازل وتناوله بحضور العشيقين، مما يبين أيضا طبيعة حياة طبقة معينة من الناس.

استعمل السارد جملة «قال صاحب الحديث» للاستمرار في سياق الرواية، كما ردد كثيرا عبارات أخرى مثل «فلما فرغ من شعره بكى وقال» أو «هذا ما كان من أمر زهرة الأنس، وأما ما كان من أمر الملك» وهي جمل يستعملها ليصف لنا ما قام به كل منهما في نفس اللحظة، أو في نفس الموقف.

يحتل الجنس مكانة مهمة في حكاية العشاق، وهو شيء لا فت للانتباه، بالنسبة لعمل إبداعي كتب في ذلك الوقت، إذ نرى الراوي يحدثنا عن الوصال والبوس والعناق، وعندما اشتد الحب بين العشيقين، وصف لنا اللقاء الجنسي بينهما، إذ يقول في (ص. 828 من الرواية) « وقد اشتد بهم المدام

وهاهو في بحر الغرام، فسكرت زهرة الأنس ومزقت ثيابها وتمرغت في حجر حبيبها، فلما نظر ابن الملك ما حل بها، قام ورفعها ودخل المقصورة، وأطلعها على السرير ونزع ما عليها من جواهر وألبسة، ودخل معها الفراش وضمها إلى صدره، ولاعبها، وطلع على صدرها، وطلعت على صدره، وهم في بوس وتمريغ، وعض ودغدغة، إلى أن هاج العشق والغرام، فدخل بين فخذيها وعض شفتيها وتمرغ على صدرها، قالت حبيبي خذه، فقال هاتيه! فقالت هو لك، فقال آتني بها يا ضوء عيني، فقالت هاهي ولا تلمني يا من سجن عقلي وحبك ملكي، ولم يزالا في بوس ولعب ونيل المنى إلى أن طلع النهار».

والجدير بالذكر أن أسلوب الرواية بالإضافة إلى الشعر والنثر ممتلئ بالسجع، وتكثر فيه الأمثال الشعبية ويختلط فيه العامي بالفصيح، كما يقسم النص إلى جزأين بما سماه السارد «بالاستطراد» يوضح فيه منافع وأنواع المحبة والغرام ومراتبهما ومدى فاعلية وأهمية الحب وانعكاساته على الحبيبين، يقول المحقق «معظم ما جاء في هذا النص، ويقصد الاستطراد، من التكلم عن الحب ومراتبه منقولة

من التراث الأدبي العربي أو من اطلاعات المؤلف، والذي يعود إلى كتب مثل «تزيين الأسواق» و«ديوان الصبابة» يجد تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع» وهذا يؤكد إلمام الكاتب بأمهات الكتب والمراجع العربية.

وكما يشير بأن اللقاءات كانت تتم في بيت ابن الملك وزهرة الأنس، وهذا يبين أيضا أبعاد المبادرة التي كانت تأخذها المرأة آنذاك، إذ كانت تستقبل حبيبها دون حرج، ولم تكن لقاءات عادية بل كانت لقاءات غرامية تطول لأيام، حتى يقطعها زائر يأتي ليخبر العشيق أو العشيقة أن أسرتهما تريد رؤيتهما والاطمئنان عليهما لأن أخبارهما قد انقطعت عنهم منذ مدة، وهذا يدل على أن المجتمع كان يتقبل أشياء لا تقبل بها الكثير من المجتمعات العربية اليوم.

يضاف إلى ذلك الأخطاء اللغوية والإملائية التي أشار إليها المحقق في الحواشي، لكن بالمقابل نجد الراوي يوظف الشعر العربي ليثري عمله وأحيانا يقدم من خلاله أدلة تسمح لنا بالتعرف على الكاتب الحقيقي لهذه الرواية والسنة التي أنجزت فيها، وهذا مما يثبته في آخر قصيدة طويلة تتكون من 66 بيتا، بعد أن قدم لنا نهاية سعيدة للحبيبين، إذ جمع عماله

بحضور حبيبته وبعد انتهائهم من الأكل والشرب ألقوا شعرا مدحوا من خلاله ابن الملك كما قدموا له نصائح وتوجيهات ومواعظ، أما كاتب الرواية فهو كما يقول الراوي:

كتبت حكايتي بالشوق والضمائر وأنا الضعيف ابن ملك الجزائر

وجعلت مدادي دمعة عيني من حب زهرة الأنس دمعه تتقاطر

إلى أن يقول:

فإني عبد الله الضعيف محمد بن إبراهيم بن مصطفى باي الجزائر

سلطنة أجدادي شاعت في كل بلدة ولا تأمن الزمان فإنه غادر

أما بالنسبة لتاريخ كتابتها فيقول:

تميت نظام وختمت حكايتي وشرحت حديثي سطرا سطر

في عام ستة بعد ستون ومائتين وألف جماد الأول يوم الآخر

يتضح من هذه الأبيات أن مؤلف الرواية هو محمد بن إبراهيم، الذي يشهد عن ذلك بنفسه، وأنه من أعيان وبايات الجزائر، حيث كتب معاناته الغرامية مع زهرة الأنس في

روايته حكاية العشاق ودلنا على تاريخ كتابتها. وهو يتوب عما فعل ويكفر عن نفسه في آخر القصيدة حينما يقول:

واختم بالإيمان وارزقني حلاوته وثبت قولي عند سؤال النكير والمنكر

واحشرني ووالدي مع عبادك الذين قربتهم مبشرين بالخير

وبيض وجهي يوم البعث واعتق رقبتي من حر تلك النار

العبد عبدك واقف بين يديك يرجى رحمتك وأنت الحليم الغافر

وكأنه بذلك لا يكفر عن ذنوبه ويستدرك أخطاءه فحسب، بل يعتذر من القراء لأنه لم يحترم نصائح والده، فرغم أنه نجح في حبه ومسعاه، وعاش هنيئا، إلا أنه أبى إلا أن يختتم بقصيدة رغم أنها لا تضيف جديدا إلى الرواية، لكنه قدمها كاعتراف بذنبه وأتخذ موقفا واضحا من تلك المعاصي التي ارتكبها بسبب حبه وكأنه يتخذ موقفا تجاه نفسه، ثم يعلن توبته ويرجو من الله الغفران والرحمة، بل ويأمل أن ينجح في مسعاه، لأنه يريد أن «يعتق من حر تلك النار» والقصيدة تعتبر مرجعا إضافيا يحدد تاريخ كتابة هذا العمل.

لقد تضمنت رواية حكاية العشاق- كما رأينا- كما هائلا من فنيات السرد وبنية الحكي، إذ يقول المحقق الدكتور أبو القاسم سعد الله:

أن «النص حافل بتصوير الجو النفسي والتمهيد لأحداث القصة، فهو إذا تحدث عن الجنس جاء بالعبارات المثيرة والألفاظ الحساسة. وعندما يصف مجلس أنس يأتي إليه بكل العبارات المناسبة كالخمر والندماء والجواري والغناء والشعر الرقيق والموسيقى العذبة». أما الدكتور عبد القادر شرشار الذي كتب بحثا مهما حول حكاية العشاق في مجلة النور الصادرة بلندن سنة 2004 فيقول: «قد توزعت تقنيات السرد في حكاية العشاق على الفضاء المكاني والزماني بين الحيز الجغرافي الواقعي والحيز المتخيل، فكان التنويع في الأمكنة والتنويع في توظيف الأزمنة عاملا إيجابيا في دفع حركية السرد عبر وتيرتين متناقضتين، يتجلى فيهما الصراع بين الشخصيات في تطبيق البرامج السردية المنوطة بالفاعلين المنفذين». كما يتميز السرد بضمير الغائب (هو)، في الوقت الذي كان يفكك أحيانا المادة الحدثية ويعيد تركيبها وفق منظورات «ورؤى وأصوات ترتبط بضمائر المتكلم (أنا)

والمخاطب (أنت) لتعلن عن حوار الوعي وجدلية الفكر وديمقراطية الرأي» (الدكتور عبد القادر شرشار، مجلة النور 2003).

لكل هذا تعتبر حكاية العشاق أول نص سردي عربي جزائري ظهر للوجود في مطلع العصر الحديث أي سنة 1849، وظل مخطوطا حبيس رفوف المكتبة الوطنية الجزائرية لأكثر من قرن من الزمان، حتى عثر عليه الدكتور أبو القاسم سعد الدين الذي قام بتحقيقه ونشره في مطلع الثمانينات من القرن الماضي. وقد ظهر هذا النص في فترة الاحتلال الفرنسي بعد الخلافة الدولة العثمانية، أما الرواية فبدأت بالبسملة وبتحضير الكاتب للقيام بعمله، ووصية الأب الذي أحس بأن الموت قد دنى منه، فأوصى ابنه بالتقوى وعدم الانشغال بعيوب الناس، والقناعة بالقليل والابتعاد عن المحارم، « يا بني إياك والهوى ولا تكن عبدا والهوى مالكك، وكن حرا والهوى خادمك، ولا تحقر عدوا وإن كان ضعيفا، يا بني إياك والعشق فتهلك نفسك، ويخرب ملكك وعليك بالصبر عند نزول المصائب» (ص. 24 و 25 من الرواية).

إن ابن الملك يسلك مسلكا آخر غير الذي رسمه له والده، إذ يقع في حب زهرة الأنس، ويشرب الخمر، غير

أن ختام العمل يأتي لصالحه لأنه قد تزوج الحبيبة، وبالطبع فإن روايته إشارة ولو غير مباشرة على خروجه عن الوصية «مرغم أخاك لا بطل» التي كان بالإمكان أن يعطيها نهاية أخرى حتى تتماهى والوصية، لكنه أبى إلا أن يقول الحقيقة كما يراها حتى وإن كانت مخالفة لوصية الأب، معترفا بسلطان الحب وبانقياده لزهرة الأنس التي عاشت وإياه قصة غرام رائعة.

العلامة محمد بن أبي شنب
صلة الوصل بين الشرق والغرب

العلامة محمد بن أبي شنب
صلة الوصل بين الشرق والغرب

فرض الدكتور محمد بن أبي بن شنب نفسه في الأوساط الثقافية في الجزائر وخارجها، وكانت له علاقات وطيدة مع الكثير من الكتاب العرب والمستشرقين والمهتمين بالثقافة العربية. أتى في ظرف تاريخي معين جعله يركز كل جهده على البحث والكتابة. ومن خلال قراءتنا للمادة المتوافرة، برغم قلّتها، وجدنا في فكر محمد بن شنب فكراً أكاديمياً متكاملا؛ فقد اهتم بالتراث الشعبي الجزائري وتعبيرات اللهجة المحلية النمطية والاهتمام بالتراث العربي الإسلامي بالإضافة إلى دراساته الأكاديمية الأخرى.

يطرح البحث عن العلامة محمد بن أبي شنب تساؤلات حول عدم اهتمام الباحثين الجزائريين بخاصة والعرب بعامة به، وهو الذي يمثل حلقة وصل بين البحث الأكاديمي الفرنسي والبحث الأكاديمي العربي. وسنرى أنه تطرق إلى مواد معرفية مختلفة، وكانت اللغة الفرنسية تحاصره، لأنه كان مضطرا للكتابة بها، لاسيما أن الجزائر كانت قد تعرضت للاستعمار لمدة أكثر من 130 سنة، فلم يكتفِ الاستعمار بنهب خيرات البلد والتسلط عليها فحسب، بل سعى إلى إفراغ الشخصية الجزائرية من أصالتها الوطنية والقومية مستعملا كل الأساليب والوسائل؛ ففرض تعليم اللغة الفرنسية و«فرْنَس» كل مجالات الحياة الإدارية والتعليمية وفرض على الشعب الجزائري الكتابة والتعليم بلغته، بل فرض عليه دراسة تاريخ فرنسا وتراثها، فكان كل من يريد أن يتعلم العربية ويدافع عنها يجد صعوبات جمة في تحقيق هدفه. هذا بالإضافة إلى الاتجاه الاستعماري في بحث وجمع مواد الثقافة والعلوم بجميع أصنافها في الجزائر. ولم ينته هذا الاتجاه بانتهاء واقع الاستعمار، إذ أن تأثيره ظل فاعلاً في النخبة المثقفة من أبناء الجزائر سواء خلال الفترة الاستعمارية أم في فترة ما بعد الاستقلال، كما نرى في كتابات

بعض أفراد هذه النخبة الذين ظهروا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهم أولئك الذين انتموا إلى الحركة الثقافية والعلمية التي نشطت في تلك الفترة والتي مثلت الوجه شبه الرسمي للمؤسسة الثقافية الجزائرية، حيث عالج الدكتور أبو القاسم سعد الله، على سبيل المثال، في كتابه «تاريخ الجزائر الثقافي» هذه الإشكاليات بالبحث والتنقيب وخصص لها عدة أجزاء، كما تكلم فيه عن الأدباء والعلماء والمثقفون الجزائريون الذين عاصروا مختلف تلك المراحل ومن بينهم طبعا العلامة محمد بن أبي شنب الذي ولد وسط هذه الأجواء، بمدينة المدية الواقعة على بعد 90 كيلومترا جنوب الجزائر العاصمة، يوم 26 أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1889. وتعود أصول أسرته إلى مدينة بورسة التركية، «وهو من أسرة تركية انتقلت إلى الجزائر منذ قرن تقريبا»، لكنه يعتبر نفسه جزائريا. ولد في وسط عائلي متوسط الحال، مما ساعده على التعليم والدراسة، وحفظ قليلا من القرآن ثم تعلم اللغة العربية والعلوم الفرنسية، وواصل تعليمه الإعدادي والثانوي في بلدة المدينة نفسها، وفيها اليوم مؤسسة تعليمية تحمل اسمه منذ الاستقلال. ثم انتقل فيما بعد إلى الجزائر وحصل على شهادة التعليم التي أهلته

ليكون معلماً في المرحلة الابتدائية، كما عمل مدرسا فيما بعد في قسنطينة، وواصل تعليمه في نفس الوقت، وتخصص في تدريس العروض والاشتقاق والصرف والتوحيد والفقه.

يقول عن مولده: «العبد الحقير محمد العربي بن محمد أبي شنب ولد يوم الثلاثاء في العاشر من رجب سنة 1286 هجرية/ 26 أكتوبر سنة 1889 ميلادية بقرية يقال لها المدية (وتُعرَف اليوم بالاسم نفسه) جنوب الجزائر وتبعد عنها تسعين كيلومترا، قرأ شيئا قليلا جداً من القرآن ثم قرأ اللغة والعلوم الفرنسية».. انتقل إلى جامعة الجزائر سنة 1908، حيث كان مساعداً لتعليم اللغة العربية، وواصل عمله في نفس الوقت بمدرسة الجزائر، حتى سنة 1922 حيث ناقش رسالة دكتوراه دولة حازها من القسم الأدبي من كلية الآداب بجامعة الجزائر».

انتقل بن شنب سنة 1924 نهائيا إلى كلية الآداب حيث كان أستاذا بها حتى وافته المنية يوم 5 فيفري 1929 وهو في قمة الإنتاج والعطاء، وكان موضوع أطروحته بعنوان «أبو دلامة حياته وشعره» باللغة الفرنسية، وقد طُبع في الجزائر سنة 1922، كما طبع في العام نفسه بحثا ثانيا بعنوان: «الألفاظ التركية والفارسية المستعملة في اللغة الجزائرية».

كان الدكتور ابن أبي شنب يحسن عدة لغات إلى جانب العربية والفرنسية، كالفارسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والتركية واللاتينية والعبرية. لذا يرجع إليه الفضل في تكوين نواة لقسم الأدب المقارن، حتى وإن لم يكن موجودا آنذاك، لأن الجامعة الجزائرية كانت تخضع للنظام التعليمي الفرنسي، غير أن بن شنب يعَدّ أول باحث جزائري اهتم باللغات وبالترجمة، وبالتالي بالانفتاح على آداب الشعوب الأخرى، دراسة وتعليما وترجمة. ولا يمكننا الحديث عن تدريس الأدب المقارن بدون الرجوع إلى اجتهاداته لأنه كان الوحيد القادر «على الإنتاج في ميدان الأدب المقارن. ونظم الشعر ونشر الدراسات العديدة ومنها ما هو في صميم الأدب المقارن، كالدراسة التي نشرها في «المجلة الإفريقية» سنة 1919 بعنوان «الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانته».

غير أن للباحث الجزائري الدكتور عبد المجيد حنون رأيا آخر بالنسبة إلى محمد بن شنب في مجال الأدب المقارن، إذ يقول: «كان محمد بن أبي شنب مستشرقا قبل كل شيء، إلا أنه كان أول أستاذ جامعي جزائري، من جهة، ومتعدد اللغات من جهة ثانية. درس الأصول الإسلامية في الكوميديا الإلهية

لدانته في بحثٍ له بالفرنسية طبعه سنة 1919 م. بحَث في أصول العديد من القضايا اللغوية والأدبية، فكان بذلك بداية الانفتاح على الغير حتى وإن كان من الصعب أن نعده مقارنا».

ألَّف مجموعة من الكتب نذكر منها على سبيل المثال: «تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب» (طبع في الجزائر سنة 1906)، «عنوان الدراية في علماء بجاية» (طبع في الجزائر سنة 1911)، «شرح ديوان عروة بن الورد العبسي» (طبع سنة 1926 بالجزائر)، تحقيق «كتاب الجمل للزجاجي» (طبع في الجزائر سنة 1927)، «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» (صدر في الجزائر عن «مطبعة جول كربونل» سنة 1920)، «مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب» (صدر في ثلاثة أجزاء، وطُبع في باريس 1905 ـ1907)، «البستان في أصل أولياء تلمسان لابن مريم» (الجزائر، 1908)، «الممتع في شرح المقنع لأبي سعيد السوي (طبع في الجزائر، سنة 1908)، «الرقم ثلاثة عند العرب واستعماله في مختلف مجالات الحياة والعقيدة والشرع والدين»، ويبحث هذا الكتاب في الشعر والأمثال، عن موقع الرقم ثلاثة

واحتلاله مكانة مهمة في الثقافة العربية. كما اشتغل بالترجمة من العربية إلى الفرنسية وترجم في هذا المجال «ديوان الحطيئة» ومجموعة أخرى من الدواوين والكتب «لكنها لم تطبع وبقيت مخطوطة». غير أنه كتب أغلب مؤلفاته باللغة الفرنسية. كما اهتم بإعداد الفهارس لبعض الكتب التي خلت منها، كشرح الحماسة، وكتاب «ألف باء» لأبي الحجاج يوسف البلوي، إلخ..

يقول عنه صديقه وأستاذه جورج مارسه: «كنا نرجع إليه ونستضيء بضيائه وكنا نناديه (شيخنا) فإنه كان يجمع إلى صفات العلم والعالم الحقيقي صفات الصلاح والطيبة».

كانت كلمة شيخ تعني لديه الحكمة وكان يحبذ سماعها نظرا أيضا لإسلامه المتفتح، حيث كان حريصا، كما يقول تلميذه الزاهري، على تأدية الصلوات في أوقاتها، ولذا جمع بشكل رزين بين العبادة والبحث والكتابة، وكان من صفاته أيضا الاهتمام بالمخطوطات التي كان يحث على الاحتفاظ بها، فاعتنى بتحقيق الكثير منها، ونذكر منها على سبيل المثال: «الرحلة من تلمسان إلى مكة» و«رحلة إلى الحجاز» (طبع في الجزائر باللغة الفرنسية، سنة 1908)، «مشاركة في تاريخ

صقلية»، (صادر سنة 1910)، «تاريخ ملوك المرينيين» (صادر عن مطبعة «كوربونيل» سنة 1921)، الخ... كما كان يحث الناس على عدم بيع المخطوطات المكتوبة من طرف جزائريين أو المتوفرة لديهم، وذلك عندما لاحظ أن بعض الغربيين يدفعون مبالغ مغرية لاقتناء كل ما يعثرون عليه من مخطوطات، وكان يجوب البلاد للاطّلاع عليها ويوصي معارفه بأن يعلموه بأماكن وجودها لأنها تعد ثروة ثقافية مهمة وذاكرة للشعب الجزائري.

عرف بن أبي شنب بتواضعه وسعة اطلاعه وحسن معاملته للناس، وفي هذا الصدد تتردد حوله النادرة التالية:

كان في يوم من الأيام في القطار متوجها من مسقط رأسه إلى الجزائر العاصمة للإشراف على امتحانات الثانوية العامة، أي البكالوريا، وإذا بشابين أوروبيين يجلسان جنبه في عربة القطار، وبدءا يسخران منه ومن لباسه التقليدي، فلم يهتم بهما لأنه كان يواصل تفحص ملفاته، وفي صباح الغد، وجد الشابان نفسهما أمامه، ففوجئا، لأنه أشرف على امتحانهما الشفوي، ولم يقل لهما أي شيء، أما هما فقد اعتراهما الخجل لما بدر منهما حينما التقياه في القطار. هذه النادرة تبين

مدى تسامحه وتواضعه. ومما امتاز به المرحوم محافظته على الزي الوطني والأخلاق والعادات والتقاليد الجزائرية، والتزامه التكلم بلغته العربية، «حتى يخيل إلينا أنه لم يكن يحسن اللغة الفرنسية تماما، وكان من يراه لا يخطر بباله أنه أمام أكبر علماء الجزائر».

أما الأستاذ مارتينو مدير كلية الآداب في جامعة الجزائر فيقول: «إن السيد بن أبي شنب كان صوت الأديب المسلم الذي عرف كيف يطلع على الأساليب الأوروبية في العمل من دون أن يفقد شيئا من صفاته وعاداته (...) وعرف لوازم النقد العلمي وقد حضي بالاعتراف بقدره؛ ففي العام 1920 انتخبه المجمع العلمي بدمشق عضوا من أعضائه، وفي العام 1922 قلدته حكومة الجمهورية الفرنسية وسام فارس جوقة الشرف. وكان يمتاز بصفات تجعل كل من يعرفه يكنّ له المحبة والتقدير، فقد كان بخاصة كريم النفس، متميز العقل، عفيف اللسان في الإفصاح عن العواطف والالتزام بالاستقامة التامة».

أما الدكتور محمد كرد علي في كتابه «المعاصرون الذي حققه وأشرف على طبعه محمد المصري، والصادر في بيروت

(دار صادر سنة 1991)، فيقول في الصفحة 339 من كتابه هذا: «ورجل من عيار بن أبي شنب هو فخر أمة، قمين أن يرفعها في نظر العالم المتمدن إلى مراتب الأمم الصالحة للبقاء، فقد تهيأ بما وهب وما كسب من العلم بأن يظهر العلم العربي في ثوب قشيب من نسج القرن العشرين، وأظهر أمته في مظهر أمة تسلسل فيها العلم ثلاثة عشر قرنا، من كبت للحرية في بلاده من قبل الاستعمار، قام حق القيام بما أراده وأراده له وطنه، فبيض الوجوه في المواطن كلها».

نشر ابن أبي شنب أربعة وستين بحثا في دائرة المعارف الإسلامية، وخمسة وسبعين دراسة أغلبها باللغة الفرنسية صدر معظمها في دوريات فرنسية مختلفة كالمجلة الفرنسية الصادرة عن «الجمعية التاريخية الحربية». كما عين عضواً في «الجمعية الآسيوية» سنة 1906 ونشر فيها عدة بحوث، وكتب في «المجلة الإفريقية» الكثير من الدراسات، التي ترجم معظمها ونشر في مجلة «الشهاب» الصادرة عن الحركة الإصلاحية الجزائرية. كما أسهم في كتب جماعية. وفي العام 1924 انتخبه المجمع اللغوي العلمي الاستعماري بباريس عضواً لمحاملا به.

قام بتمثيل الأساتذة الجزائريين والأوروبيين في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في أكسفورد ببريطانيا حيث تعرف عن قرب على الدكتور طه حسين. وكانت تربطه علاقة قوية مع العالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب ومع الدكتور محمد كرد علي، الذي يقول في ابن أبي شنب، عندما التقاه في أكسفورد وهو يلقي أحد بحوثه: «شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين وهو في لباسه الوطني: عمامة صفراء ضخمة، وزنار عريض، وسراويل مسترسلة، ومعطف من صنع بلاده، فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه، وظننتني أستمع عالما من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة إسلامية، أو عالما من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان ووفر له قسطاً من العلم والبصيرة، وقد فطر على ذكاء وفضل غرام بالتحصيل، وقيض له أن يجمع بين ثقافتين ينبغ ويفصح في كل لغة بمعانيها».

كما كان على علاقة وثيقة بمجموعة من المستشرقين أمثال رينيه باسيه (وكان أستاذا له)، وصديقة جورج مارسيه اللذين كتبا الكثير في مجال اللغة العربية وأقاما في الجزائر، والمستشرق ليفي بروفنسال، الذي عرف بكتاباته

في مجال الأدب والتاريخ (ويعَد كتابه «تاريخ المسلمين في الأندلس» مرجعا مهما)، والمستشرق الروسي كراتشوفسكي الذي عرف بمواقفه الرصينة وهو من بين أهم الملمّين بالأدب العربي وكان أستاذا لهذه المادة في جامعة بيترسبورغ.

كان ابن أبي شنب حريصا على مراسلة أصدقائه وأساتذته، وكان يبعث إليهم بكتبه، ويتابع حركة النشر، ولكننا لا نجد له نشاطا يُذكر في المجمع اللغوي العربي، اللهم إلا بعض المقالات والمراسلات، ويعود ذلك لنشاطه المكثف في التدريس والتأليف، وربما أيضا إلى عامل المسافة. لكن كان ملحوظا أن هذه التحركات كانت مقتصرة على الفرنسيين الذين كانوا يمثلون الجامعة الجزائرية في الندوات واللقاءات سواء في الغرب أم في العالم العربي. ويُذكر أنه في رده على طلبات أصدقائه العرب كان خجولا، لأنه كان يوجههم إلى الإدارة، والاتصال بالمسؤولين، إذ لم يكن له نفوذ إداري برغم مكانته العلمية واعتراف الجميع بدوره الهام في ذلك المجال. وقد جاء في رده على الدكتور محمد كرد علي، عندما عرف بقبول عضويته في المجمع العلمي: «أخبرتموني بأن حضرتكم وسادة أعضاء المجمع العلمي

العربي قد تفضلتم على العبد الأضعف بتعيينه عضو شرف، والله لقد خالط عندي الجذل الخجل...جزاكم الله خيراً».

وجاء في رسالة بعث بها ابن أبي شنب إلى المؤرخ والعالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب في أمر كتاب كان ينتظره: «جناب سمو الشيخ حسن حسني عبد الوهاب الأكرم، أدام الله بقاءه، وأجزل جزاءه، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإن أشعة رسائلكم قد احتجبت عني منذ زمان، وتاقت النفس إلى الاطلاع عليها غاية التوقان. فضنت ضنونا، ورنت رنونا....هذا وقد وعدتموني في الأموس، بنسخة من رياض النفوس، وإلى يومنا هذا لم أقف لها على أثر...». وفي رسالة للعالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب إلى ابن شنب يقول له فيها: «وافاني كتابكم كتب الله لكم السعادة، وأغدق عليكم نعمته، وزيادة بوشيكم الرائق وترصيعكم الفائق مثبتا لحياة الترسل بالإيالة الجزائرية، أكثر الله من أمثالكم في الهيئة الإسلامية وعزز ببراعتكم حملة الأقلام العربية». كما كان الدكتور محمد بن أبي شنب ينتدب إلى بعض الامتحانات العالية في المغرب العربي، ويرأس لجنة من لجانها التي تتألف من كبار العلماء الفرنسيين، ويروي

تلميذه محمد سعيد الزاهري أنه «التقى به في لجنة الامتحان في تونس سنة (1341 هـ / 1922 م) في الكلية الزيتونية مع العلماء الفرنسيين فوجده «عالما جزائريا غير متجنس بالجنسية الفرنسية، ورئيسا مشرفا على لجنة علمية فرنسية يرأس جلساتها بزيه الجزائري التقليدي، وحين حضرت صلاة العصر أوقف الجلسة للاستراحة وقام فصلّى». («المقتطف»، نوفمبر 1929).

كتب ابن أبي شنب الشعر الملحون، كما كتب الشعر المقفى، ونظم عدة قصائد في الجزائر وفي مدح بلدته وفي أغراض أخرى. وحثّ على التزود بالعلم إذ يقول:

أفيقوا بني أمي عمي برقي المشارف وجدوا وكدوا في اكتساب المعارف

فقد ذهب الأعلام والعلم بينكم ولم يبق إلا كل غمر وخالف

خلت أربع العرفان واستوطن البلى وغف غراب الجهل حقا بشارف

فيا وحشتا من طالب ومدرس ومنشد أشعار وراوي اللطائف

وقال في قصيدة يمدح فيها الجزائر:

هلم بنـا نحو الجزائر يا فتى فقد ضاق بي حالي وأقـعـدني الـوجـد

هنك غـزال قـد غـدا بسواحـر وخذ به يـزهو الأقـاحي والـورد

شبه عبد الرحمن الجيلالي في كتابه «محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره»، بن أبي شنب بالبحاثة الكبير أحمد فارس الشدياق، وذلك من ناحية «التعمق والتبحر في علوم اللغة العربية وآدابها، والبحث في مفرداتها وتراكيبها، فكلا الرجلين كان إماما ضليعا في هذا الميدان..». وبحث عن أوجه التشابه بينهما أيضا في مجال الأسلوب، الذي يراه أنه يميل إلى الأسلوب العلمي الذي يصف الأمور بدقة، بعيدا عن زركشة الكلام واعتماد الخيال الذي يغلب أحيانا على جوهر الموضوع المعالج. هذا فيما يخص التأليف، أما فيما يخص مراسلاته فنراه يستعمل أسلوبا آخر لرسائله الخاصة التي كان يدبجها بعبارات المحسنات البديعية ويدخل فيها أحيانا غريب اللفظ.

ناضل بن شنب بكتاباته، فهل كان يعرف أن الكتابة هي نوع من الكفاح؟ وكان يحث على النهل من العلم مهما كان الأمر، المهم أن تكون إضافات الكاتب جيدة وعميقة

وموضوعية وأن لا يغلب الجانب الجمالي في اللغة على الجانب الأساسي في الموضوع المعالج، إذ يقول: «خذ العلم، وماذا يعنيك أكان بأسلوب طلي أم كان بأسلوب غير طلي، وحسبك أنك فهمت عني ما أريد، ولا تغرنكم زخارف الألفاظ وتزويقاتها، وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهيم؟!». ويرى بأن طلاوة الأفكار هي من اهتمام الشباب في كتاباتهم قبل غيرهم، «الشباب الذين يهتمون بمظاهر الأشياء» ونفهم أيضا من مقولته تشجيع العلماء على الإنتاج والبحث.

توفي ابن شنب بعد حياة حافلة بالعطاء والتأليف والقراءة، يقول عنه الشيخ البشير الإبراهيمي: «كان الرجل محافظا ولكنه محافظ بالمعنى المعقول، محافظة البصير الناقد الذي يرى أن مشخصات الأمم منها جوهر ومنها عرض، وأن الجوهر منها هو الصالح للبقاء وأنه لا بد للفرد ولا بد للجماعة في تكييفه كما يشاء أو كما تشاء، وأن تطوره موكول إلى نذير الاجتماع لا إلى تدبير الجماعات، وأن العرض منها هو محل التبديل والتغيير يصلح لزمن فيؤخذ ولا يصلح لآخر فينفذ، فالمحافظة على جوهر المقومات ليست محافظة

وإنما هي حفظ للقومية من الاندماج والتداخل وعماد لها أن تتداعى وتسقط، وأما الأعراض فهي قشور تتحول وتزول فهي كأوراق الخريف توجد وتعدم والشجرة شجرة» (مجلة «الشهاب»، العدد 5 و 6، ذو الحجة 1347، الموافق لشهر مارس سنة 1929). لكنه كان يرى أيضا وجوب تحرر الفكر من قيود الأوهام المصادمة والمعارضة للدين والأخلاق ولقيمهما، تلك الأوهام التي تسيّره إلى الوراء، وتتركه يتفرج على النهوض والعيش مع منجزات الغد، وكان يدعو للتحرر وتحويل الجهود من الاهتمام بالأوهام إلى العمل على التطلع إلى العلم ومبتكراته والحث على التفتح على الآخر، أي أنه كان يؤمن بالجانب العملي والممارسة. وكان يرى أن المثقفين المسلمين يبذلون طاقاتهم في «التشاكس والتطاول» بين بعضهم البعض، ولا «يتمتعون بالحياة التي يتمتع بها علماء الغرب وأدباؤه». وكان في رأيه أن نتيجة ذلك هي أن لا تعود «الأمة تثق بهم وبأعمالهم ولو علموا كل شيء».

فرض ابن شنب نفسه على الساحة الثقافية وأصبح مرجعا بحكم مؤلفاته واطلاعه ومعرفته لعدة لغات قراءة وكتابة. وكان الرجل يكتب بمنهج علمي فرض به نفسه

على الساحة الأكاديمية، وتطرق إلى مواضيع شتى، هذا العالم الجزائري لم يكتب عنه إلا بعض المقالات هنا وهناك، ولم يؤلَّف عنه إلا كتاب واحد بعنوان: «محمد ابن أبي شنب: حياته وآثاره» لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي، الصادر في الجزائر، عن المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة 1983. كما تطرق إليه بعض الباحثين العرب ولكنهم عرفوا به ولم يدرسوا أعماله كما فعلوا مع أقرانه محمد كرد علي ورونيه باسية وهنريه ماسيه وغيرهم كثيرين، برغم أن أغلب الباحثين يرون أنه يمثل امتدادا للنهضة العربية التي رأت النور على أيدي عبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل ورفاعة رافع الطهطاوي وآخرين. بقي منسيا ولم يكتب عنه، لا من الجزائريين، ولا من المستشرقين، فظل مغموراً.

إلا أن بعض الأساتذة في مسقط رأسه بمدينة «المدية» بدؤوا منذ سنوات يلتقون يوما في السنة لتقديم أبحاث حوله، ولكنها لا ترقى إلى مستواه، وهي تراوح مكانها ولا تتكلم إلا عن حياته.؟ لكنها تبقى مبادرة نتمنى لها النجاح وسوف ترقى لا محالة مع الوقت إلى مستوى صاحب الذكرى، وتحرض الباحثين على الإسهام في مجال الاهتمام

به. فهذا حفيده الدكتور الهادي بن أبي شنب يواصل البحث والتنقيب عن آثار جده وقد كتب حوله مقدمة طويلة في الملف البيبليوغرافي الذي أصدرته مكتبة «معهد العالم العربي» بمناسبة مرور خمسة وسبعون سنة على وفاته، كما راسل كثير من الأساتذة لحثهم على ذلك.

لكن ما يحير ويصعب علينا إيجاد إجابة مقنعة حوله، هو موقف بن أبي شنب من الاستعمار الفرنسي، هل كان يرى بأن دوره في الجهاد هو الكتابة، أم كان قابلا بالأمر الواقع؟ تبقى هذه النقطة غامضة في سيرة العالم حتى وإن أكد الشيخ البشير الإبراهيمي، بأن دور الرجل كان دائما الجهاد بالكلمة «في المحافظة على القومية الصحيحة، في إطراح الحظوظ والرهانات، في استخدام البصيرة في كل شأن من شؤون الحياة في القصد». أما المستشرق ألفريد بيل صديق بن أبي شنب فإنه يرى في مقالة كتبها عنه في المجلة الأسيوية بعنوان :«محمد بن شنب فقيد العلم» (المجلد 214، سنة 1929) في موضوع علاقة بن شنب بالسياسة: «وبقي ابن أبي شنب بعيدا ومترفعا عن خوض المناقشات السياسية أو المعارك الانتخابية التي كانت لها أهمية كبرى لدى كثير من

الجزائريين، لقد رأى أن من الأفضل أن يظهر علاقته بفرنسا وبأساتذته على منوال آخر، وذلك باستخدام نشاطه الخصب ومعرفته الواسعة، في عمل علمي فرنسي المنهج حول الدراسات الإسلامية في شمال إفريقيا». أي أن الأستاذ بيل يشير إلى عدم رضا الجزائريين بالحالة التي كانوا عليها، وهم يخوضون معارك سياسية لإيجاد حل يحررهم من الاستعمار، الشيء الذي لم يكن بن شنب يعيره اهتماماً. وهو وإن كان أستاذا للآداب العربية في الجامعة الفرنسية بالجزائر، وحاز شهادة الدكتوراه في الآداب، إلا أنه في الواقع «عالم أكثر مما هو أديب وأبحاثه وإن كانت في موضوعات أدبية شتى فهي أبحاث علمية على طريقة علماء المشرقيات، لأننا لا ترى فيها مسحة أدبية فهي كلها أبحاث في اللغة العربية» («المقتطف»، 1929، ص 423).

اهتم الدكتور محمد بن أبي شنب كثيرا بالتراث الشعبي الجزائري والتعبيرات اللهجية النمطية بالإضافة إلى دراساته الأكاديمية الأخرى، غير أن أعمال هذا «الدارس لم تتحرر تماما من طابع البحث الأكاديمي الفرنسي، حيث كان يركز على جانب التوثيق والتعليق والملاحظة الوصفية

الأثنوغرافية في البحث الأكاديمي حول التراث واللهجات» على حد تعبير الدكتور عبد الحميد بورايو، الأمر الذي جعل هذه الأعمال بعيدة عما كان يجري في حقل مناهج الدراسة العالمية المستلهمة لعلم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات التي عرفت تطورات هامة على المستوى العالمي بعد الحرب العالمية الأولى.

ترك الدكتور بن شنب بصماته الواضحة على البحث الأكاديمي وكان مميزا في انتقاء مواضيع كتاباته المختلفة، وكان يعد من أعمدة اللغة العربية في الجزائر، التي كان ولا يزال البعض يراها بأنها فرنسية اللسان، وبن شنب برهن بمعطيات ملموسة على إثبات العكس في اهتمامه باللغة العربية قراءة وبحثا. والاهتمام باللغة في ذلك الوقت هو صمود كبير يدلّ على مدى وعي من كتب بها، ويرمز إلى الدفاع عن الهوية الجزائرية، وذلك برغم كل ما كانت تكنّه فرنسا وأعوانها من حقد على الشعب الجزائري وكراهية للغته العربية.

ويعتبر بن شنب ثاني جزائري يحصل على رسالة دكتوراه في ذلك الوقت، بعد أستاذه العالم محمد صوالح.

ويرى البعض بأنه أول جزائري حاز على درجة الدكتوراه. لقد فرض نفسه بعمله الدؤوب الذي لم يقتصر على التعليم وتدريس اللغة العربية (حتى وإن باللغة الفرنسية) بل اهتم أيضا بتدريس التاريخ والترجمة والأدب وتحقيق الكتب والاهتمام المتزايد بلغات الآخرين.

الأديب الجزائري
أحمد رضا حوحو

الأديب الجزائري أحمد رضا حوحو

ولد أحمد رضا حوحو في الجنوب الجزائري، سنة 1911 بمنطقة الزاب، في مدينة سيدي عقبة، مثوى الصحابي عقبة بن نافع، باني مسجد القيروان بتونس، وأول الفاتحين المسلمين الذين دخلوا إلى الجزائر. وكانت هذه المنطقة كبقية المناطق الجزائرية الأخرى، تعيش تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي شجع أو دفع بطريقة أو بأخرى في (ازدهار) بعض التقاليد والعادات، كانتشار الطرقية مثلا، وبحكم أن ضريح الصحابي الجليل بالمنطقة مكان يقصدونه السكان تبركا به، كما انتشرت هذه العادة أي زيارة الأضرحة في بقية المدن الأخرى، وكانت تلك الزيارات والتبرك بمثابة البحث عن بديل للواقع المأساوي الذي كان يعيشه الشعب الجزائري

تحت الاحتلال والاستيطان. ربما نتفهم هذه الممارسات إذا نظرنا إليها من زاوية الفراغ الفكري الرهيب الذي كان يسود الجزائر، إضافة إلى الخوف وطغيان الاستعمار وأعوانه، ففي هذا الجو ولد وترعرع رضا حوحو الذي بدأ تعليمه الابتدائي في سيدي عقبة، ثم انتقل إلى مدينة سكيكدة في شمال الجزائر، على ساحل البحر والتي كانت تقطنها غالبية أوروبية، حيث أكمل دراسته الإعدادية باللغة الفرنسية، وبمجرد حصوله على شهادة «الأهلية» عاد إلى مسقط رأسه، سيدي عقبة، وعمل في إدارة البريد والمواصلات.

والحال أن والده مسئولا شيخ بلدية، اعتبارا لمكانة عائلته في المنطقة ولما تتمتع به من العلم والاستقامة، وكان قد شب خلاف حاد بين الوالد، و«الباشا أغا» (المعروف بعمالته للمستعمر الفرنسي، فقد كان من كبار أعوانه) أرغم الأسرة على مغادرة الوطن والانتقال إلى الحجاز سنة 1935. حيث عاشت الأسرة في المدينة المنورة، وواصل أحمد رضا حوحو تعليمه في معهد العلوم الشرعية، فحصل على شهادة التدريس، وبعد تخرجه عمل في حقل التعليم، ثم في «البريد والمواصلات» وبدأ منذ العام 1937 يكتب في مجلة «الرابطة العربية» لأمين سعيد، الصادرة في القاهرة، وفي مجلة «المنهل»

الصادرة في مكة والتي لا زالت تصدر حتى اليوم، وقد لعبت هذه المجلة دورا كبيرا جدا في فتح باب الحوار بين المثقفين سواء الذين كانوا في السعودية، أو في ساحات أخرى من الوطن العربي، ولذا فهي تعتبر، إلى حد كبير حافظة لذاكرة كتاب تلك المرحلة أي نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الماضي، وتظل مرجعا هاما، خاصة في مجال القصة والشعر، ولا يمكن التأريخ للأدب في السعودية من دون الاعتماد عليها بشكل أساسي.

والواقع لقد تنوعت كتابات أحمد رضا حوحو في مجلة «المنهل» حول مواضيع مختلفة، مثل مواجهة الاستعمار الفرنسي، ومهاجمة الطرقية التي كان يرى في الممارسات الدينية لبعضها ما يتناقض مع جوهر الدين، كما أن تلك الكتابات قد فتحت نافذة على الأدب الفرنسي بصفة خاصة والأدب الغربي بصفة عامة. وقد كان حوحو يتقن اللغتين العربية والفرنسية، إضافة إلى تجاربه التي اكتسبها من رحلاته التي قام بها إلى كل من مصر، حيث التقى بعض كتابها، ومن ثم إلى فرنسا وروسيا، التي كتب عنها في مجلة «البصائر» تحقيقا يقع في أكثر من أربعة عشر حلقة، كما زار يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا..وقد هال حوحو ذلك

التفاوت الكبير بين ما تتمتع به شعوب هذه المجتمعات من حقوق وحريات وبين حرمان شعبه من مثل تلك الحقوق، حتى في مجال الاستفادة من ثرواته الوطنية وحقه في استخدام لغته الوطنية، فزاده ذلك تمردا في كتاباته ورحلاته، فعندما شارك في المؤتمر العالمي للسلام الذي أقيم في باريس سنة 1949، ألقى كلمة قال فيها : «إن الجزائر تتجرع كل يوم ويلات الحرب بشتى الوسائل برغم تطلعها إلى السلام وأنها لا تريد أن ترى دماء أبنائها تسيل منهمرة، لا تريد أن تخضع لليأس، وألا ترى دموع الثكالى ودموع الأيامي ودموع اليتامى، تسيل من أجل تضخيم ثروة الأثرياء، وتوسيع أراضي المستعمرين، (...) ولهذا فإن الجزائر لا تحتج على الحلف الأطلسي فحسب وإنما ترفضه رفضا باتا. إن الجزائر تريد الحرية والسلام لجميع الشعوب، فلا غرابة في أن تريد الحرية والسلام لنفسها، فهي تمد يدها لكل من يريد لها (كما يريد لنفسه) أن تعيش حرة آمنة وتموت حرة آمنة» (جريدة البصائر عدد 79 السلسلة 2 سنة 1949).

بدأ «حوحو» رحلة الكتابة في السعودية، وفيها خط عمله الروائي الأول «غادة أم القرى» الذي يعتبر أهم أثر أدبي ويعد من بواكير أعماله والذي أهله لأن يكون رائد

الرواية العربية في الجزائر، وقد قام الناقد والكاتب الجزائري واسيني الأعرج بجمع بعض أعمال حوحو القصصية بما فيها روايته تلك في كتاب واحد حمل عنوان «غادة أم القرى وقصص أخرى» وصدر في الجزائر عام 1989 عن دار موفم للنشر، وهو يقول في مقدمته (في الصفحة 31) «إن سوء فهم العملية الاجتماعية والجمالية في الآن نفسه أدى إلى إنتاج رواية غيبت، بحكم تأطيرها إصلاحيا، الفعل الاجتماعي للشخصيات، كما غيبت الفعل الروائي أي إمكانية تأدية وظيفتها الاجتماعية، لقد عجزت «غادة أم القرى» عن أن تكون أداة معرفية لتناقضات الواقع الاجتماعي، ونجحت في أن تكون النواة التأسيسية لميلاد الرواية في الجزائر، وهذا مبعث فخرها وجرأتها» وندرك مغزى رأي الدكتور واسيني الأعرج هذا عندما نتبين أن موضوع «غادة أم القرى» هو المرأة العربية في البيئة الحجازية، بل أنها تصلح أن تكون موضوعا لبيئات عربية أخرى، قد صدر أحمد رضا حوحو روايته بالإهداء التالي: «إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود، إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى» بحيث كتبها في الفترة التي عاشها في السعودية، أي نحو عقد من الزمن أي بين 1935 و 1945. فالمرأة كانت من محاوره الإستراتيجية، وكما يقول بختي بن عودة

في مقال له بعنوان: «أحمد رضا حوحو معاصرا لنا، المعنى والمعنى المضاد» الصادر في مجلة المنتدى في دبي عدد 131 عام 1984 «إن حوحو يؤكد فقط كل شيء غير مسمى منسي وغير مفكر فيه، كما أنه بمثابة سؤال المرأة الذي يبدو أنه لم ينل كل الرهان الخاص بالخروج من عصر والدخول في آخر، بما فيه التمثيل غير الشفاف والطوعي للأنثى في المجتمع الأبوي».

عاد أحمد رضا حوحو إلى الجزائر سنة 1945، حيث تحمل أعباء الأسرة واستقر في مدينة قسنطينة بعد وفاة والدة، ثم التحق بالحركة الإصلاحية التي أسسها عبد الحميد بن باديس، والشيخ الإبراهيمي وغيرهما، إذ اشتهرت هذه الحركة بتأسيسها مدارس من أجل تعليم اللغة العربية، ناهيك عن إصدارها مجلتين ذائعتي الصيت وهما «البصائر» و«الشهاب» لكن سلطات الاستعمار أوقفتهما عن الصدور، كما شارك رضا حوحو بالكتابة في البصائر، حتى إصدار جريدة «الشعلة» التي تولى رئاسة تحريرها والتي صدر منها تسعة وأربعون عددا تحت رئاسته، قبل أن تلقى نفس مصير كل من البصائر والشهاب. ثم عمل رضا حوحو بالتدريس

في المعهد الإسلامي في سنة 1947، وأصبح عضوا عاملا، وفي سنة 1948 أصبح مسؤولا إداريا لهذا المعهد.

ومما يلاحظ أنه كتب باللغتين العربية والفرنسية، عاش مفارقات عديدة، منها أن الحركة الإصلاحية آنذاك كتبت بلغة عربية تقليدية جد معقدة بل غير مفهومة، تحركها ردود الأفعال وإثبات الذات، لكنها كانت عاجزة أن تصل إلى أوسع الشرائح الاجتماعية، فنظم الشعر كان مجالهم الأساسي، بالإضافة إلى مواضيع دينية مختلفة تناقش في أغلبها أمورا محددة في إطار ثنائية الحلال والحرام. أما حوحو فلم يشأ أن يبقى أسيرا لهذا الإطار بل تعداه إلى تناول الهموم الحقيقية واليومية التي يعيشها الشعب الجزائري بأسلوب سهل في أعماله الأدبية سواء كانت قصصية أو مسرحية أو أعمالا أدبية أخرى.

لذلك تمكن فعلا من إنشاء خطاب أدبي جديد ميزه عما كان سائدا في تلك المرحلة وأعطي لإبداعه قوة إشعاع ونهوض ثقافي، كان له دور كبير في ظهور حركة أدبية جزائرية قبل وبعد الاستقلال.

ومن ثم برع رضا حوحو في فن القصة القصيرة، و شارك مشاركة فعالة - رغم قصر المدة التي عاشها في السعودية- في إثراء فن القصة في السعودية.

وفي هذا المجال يقول الدكتور منصور إبراهيم الحازمي في كتابه «في القصة في الأدب السعودي الحديث» الذي صدر في الرياض عن دار العلوم سنة 1981، في الصفحة 93. «أحمد رضا حوحو (...) (أنه) أديب جزائري أقام في المدينة المنورة مدة من الزمن، ثم رحل إلى الجزائر يقول عنه الأستاذ أحمد محمد جمال إنه في مقدمة كتاب القصة في الحجاز، يجيد الفرنسية ويترجم عنها كثيرا».

ومن جهة أخرى يرى الدكتور «بكري شيخ أمين» في كتابه «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية»، الصادر في بيروت، عن دار العلم للملايين، ص. 522 فيقول:

«(يكاد) القصص الوطني والقومي أن يكون نادرا إذا ما قيس بوفرة الإنتاج الاجتماعي في هذا الفن (...) ثم أعلنت الحرب الجزائرية فظهرت قصص تحكي حكايات المجاهدين على جبال الأوراس، والجدير بالذكر في هذا الموضوع أن الكاتبين اللذين تحدثا عن فلسطين كان أحدهما فلسطيني

الأصل (هو شكيب الأموي) وثانيهما جزائري هو أحمد رضا حوحو، ثم تدرج الأدباء السعوديون في هذا الاتجاه، وأخذوا ينسجون فيه القصص».

أما في كتاب الأستاذ «محمود رداوي»، «دراسات في القصة السعودية في الخليج العربي» الصادر عن سلسلة المكتبة السعودية، ص. 12 فيقول:

«نستطيع أن نقول أن القصة القصيرة السعودية قد مرت بمراحل ثلاث حتى الآن هي:

-المرحلة الأولى (-1929 1934) التي كان من أبرز روادها «محمد حسن عوار»، و» عبد الوهاب آشي» و» أحمد السباعي..»

-المرحلة الثانية (-1936 1960) وكان من أبرز روادها، «حمزة شحاتة» و»محمد سعيدي ألعامودي» و»أحمد رضا حوحو» و»محمد عالم الأفغاني» وغيرهم».

كما أن الأستاذ سمحي ماجد الهاجري في كتابه «القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية منذ نشأتها حتى عاد 1384 هجرية. 1964 م» الصادر في الرياض عن «النادي

الأدبي» فهو يصنف رضا حوحو في فصل «قصص الوافدين» إذ يقول عنه في الصفحة 117 والصفحة 118 ما يلي: «قام أحمد رضا حوحو أثناء وجوده في المملكة العربية السعودية بنشر أول إنتاجه الأدبي المتمثل في بعض القصص والمقالات» أما في الصفحة 129 فيقول: «وكان حوحو يطوع هذه القصص لتناسب البيئة السعودية» ثم يضيف في الصفحة 156 إذ يقول «إننا نجد القصص التي نشرت قبل انتشار قصص حوحو والأغاني فيها الكثير من السذاجة والسطحية مثل (مرهم التناسي) و (الابن العاق) و(حياة ميت) ... بينما نجد القصص التي واكبت أعمال حوحو والأغاني تمثل أولى المحاولات الجادة لكتابة القصة القصيرة».

والجدير بالذكر أن هذه الإشارات لا تكون نظرة جدية لموقع رضا حوحو في القصة القصيرة، فمنهم من يعترف له بالريادة من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك نوع من الجحود في اعترافه بريادته.

غير أن الروائي والناقد السعودي أحمد أبو الدهمان وجد وثائق مختلفة حول هذه الفترة ويرغب في نشرها في كتاب، إذ يقر بدور حوحو الريادي في مجال القصة في السعودية،

بعد أن وجد وثائق مهمة من بينها رسالة أرسلها أحمد رضا حوحو إلى عبد الجليل القدوسي يشتكي فيها بعد أن منع من الكتابة في المجلات السعودية:

حضرة أستاذنا الجليل عبد القدوس الأنصاري الموقر.

بعد التحية والاحترام

تسلمت خطابكم الكريم وسررت جدا لاستقلالكم بأعمال جريدة «أم القرى» الإدارية والتحريرية، وأني أهنئكم بهذا الرقي راجيا المولى أن يزيدكم تفوقا ونجاحا.

اليوم فقط تمكنت من التصديق على مقال السباعي وهو مرسل إليكم بطيه وقد استحسن السيد محمود أن تكتبوا بأنفسكم لإبراهيم التركي في شأن «أم القرى». تأسفت جدا لقلق الصحافة الحجازية أبوابها في وجه أبحاثي في الأدب الفرنسي، ولا أعرف كيف يكون موقف «المنهل» في هذا الشأن وهل ستحرم حقيقة من كل الآداب الأجنبية؟

كتبت هذه الرسالة في المدينة بتاريخ 21 جويليت 1359 هجرية.

وهي وثيقة هامة تبين أسباب عودة رضا حوحو إلى الجزائر بعد أن أغلقت أمامه كا «الأبواب في السعودية» كما يقول أبو الدهمان.

ومن الجلي أن أحمد رضا حوحو لعب دورا رائدا في القصة في كل من السعودية و الجزائر، وترك بصماته واضحة لكل متتبع ومهتم بهذا الفن، فعلى الرغم أنه لم يمكث طويلا في السعودية، إلا أنه بدأ حياته الفكرية فيها، واستوحى من البيئة السعودية أعمالا كثيرة وعلى رأسها روايته «غادة أم القرى» أو قصة «خوله» في مجموعته القصصية «صاحبة الوحي» وفي أعمال قصصية أخرى..بحيث كتب حوحو في ميادين إبداعية مختلفة: القصة، الرواية، الشعر، المسرحية، وهو ما يتبدى من الدكتور أحمد منور بجمع مسرحيات رضا حوحو في دراسة أكاديمية استغرقت منه أكثر من ستة سنوات لإنجازها، وهي بعنوان: «مسرح أحمد رضا حوحو: دراسة مقارنة»، التي ناقشها في جامعة الجزائر سنة 1989 في رسالة ماجستير. ولأحمد رضا حوحو شأن أيضا في الموسيقى ، فقد كون فرقة موسيقية غنائية مسرحية كان هو عمادها، وهي فرقة «المزهر القسنطيني» نسبة إلى البلدة التي استقر فيها بعد عودته من السعودية، كما كان يستعمل

بعض الأدوات الموسيقية المحلية. وكانت السمة التي تميز أسلوب رضا حوحو هي السخرية والنقد اللاذع، فهو يرى أن الأديب هو: «إنسان ضعيف يريد أن يعيش بعقل قوي جبار، إنه شخص غريب يستحق العطف والرحمة، ولكن لا يجد في حياته سوى الجحود والحرمان، والآلام والنكران، إلى أن يدركه ربه برحمة الموت فتحمله إلى عالم الأبدية.. تعذب نفس الأديب، وتتطلب شيئا من الترفيه، فلا يرحمها لأن الراحة تتطلب الكذب على النفس والتمويه عليها، وهو لا يريد أن يغمس نفسه ويكذب عليها وإنما يصدقها ويصدمها بحقائق الحياة مهما كانت مؤلمة» (جريدة البصائر عدد 6، السلسلة 2 سنة 1947).

أما الأديب والناقد والمؤرخ والمحقق الجزائري، الدكتور أبو القاسم سعد الله، فيقول في كتابه: «دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الصادر عام 1966 في بيروت، عن دار الآداب» (ص.9)، «لفت نظري في أدب حوحو ظاهرتان هامتان الأولى السخرية، والثانية براعة الحوار، فالسخرية ظاهرة شائعة في جميع آثاره حتى الجاد منها، يلتجئ إليها للتعبير عن خلجات نفسه وآرائه وشؤون الحياة، وليس غريبا أن يعمد حوحو إلى هذا الأسلوب في مجتمع كالمجتمع

الجزائري (....) وعندي أن حوحو لو امتهن الرسم لكان من أبرع الرسامين في فن الكاريكاتير ..».

وبالإضافة إلى روايته غادة أم القرى التي كتبها في الحجاز وصدرت في قسنطينة سنة 1947، صدرت له أعمالا أدبية أخرى تستحق الاهتمام مثل «حمار الحكيم» الذي طبع في قسنطينة سنة 1953، والذي استوحاه من كتاب توفيق الحكيم «حمار الحكيم» وبناه على أساس من التصور بأن حمار توفيق الحكيم بأفكاره الفلسفية قد زار الجزائر وأن حوحو قد استقبله بوصفه كاتبا وأديبا وراح يحكي له هموم الشعب الجزائري وهموم مثقفيه وذلك بأسلوب ساخر على شكل حوار يدور بين حوحو والحمار ويتناول بالطرح والمعالجة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية التي يعيشها الشعب الجزائري.

وفي العام 1954 صدر لرضا حوحو في قسنطينة المجموعة القصصية التي تحمل عنوان «صاحبة الوحي» وتطرح مشكلات الشباب والحب والزواج والعلاقات الاجتماعية، كما تتناول سلوك الرجل ومواقفه وعلاقته بالمرأة بوصفه آبا وشقيقا وزوجا.

ففي قصة «القبلة المشؤومة» نقرأ «وكنت أشرح له ضرورة الحب في الحياة، وأؤكد له أنه دافع التقدم، ومبعث النبوغ، ومرسل العباقرة، كما كنت أفهمه بأنه لا دخل للحب في الفسق، على عكس ما كان يتوهم، وأن الحب الحقيقي الصادق لا يكون إلا طاهرا نقيا » (غادة أم القرى وقصص أخرى، ص.80).

فكما نرى فبالإضافة إلى السخرية التي وظفها لمعالجة بعض القضايا من خلال كتاباته وقول ما يريد عبرها، نجد أنه يعطي مساحة كبيرة للاهتمام بالمرأة كعنصر أساسي، يجب أن يحترم وأن تعطى لها مكانتها فبإقصائها أو عدم احترامها يحفر الإنسان العربي هوة من الطلاسم ويفقد بذلك شخصيته والثقة بنفسه، فهي أن كانت أما وأختا وجدة، فإنها أيضا حبيبة ورفيقة وعالمة وأديبة مما يتوجب احترام مشاعرها وطموحاتها حتى تساهم في خلق مجتمع سليم مبني على الثقة والاحترام المتبادل. لذا فكما قلنا أعلاه تعد المرأة من أهم محاوره الإبداعية.

في سنة 1955 صدرت له مجموعة قصصية بعنوان : «نماذج بشرية» (طبعت في تونس في سلسلة كتاب البعث)

وهي شهادات متفرقة وحية عن المجتمع الجزائري في تلك الحقبة، وهي تتضمن الكثير من أراء حوحو في بعض المشكلات والقضايا الاجتماعية.

أما المسرحيات التي كتبها فكان أغلبها مستوحى من الأدب الفرنسي والانجليزي المترجم إلى اللغة الفرنسية والذي يثير الاستغراب أنه لم ينشر منها أي شيء تقريبا، باستثناء مسرحية «عنبسة» التي استوحاها من الكاتب الفرنسي «فيكتور هيغو» ونشرتها مجلة «الحلقة» التي صدر منها في الجزائر عدد واحد فقط ، ثم توقفت عن الصدور سنة 1972، وثمة مسرحيتان لا تزالان مخطوطتان هما «بائعة الورود» و «البخلاء الثلاثة» وقد جمعهما الدكتور أحمد منور في كتابه الصادر في الجزائر، عن دار هومة، سنة 2005 بعنوان «مسرح الفرجة والنضال الجزائري: بحث في مسرح رضا حوحو» والذي يقول فيه الدكتور إبراهيم صحراوي في مقالة نشرها في القدس العربي بتاريخ 25 فيفري 2006 «الكتاب رحلة ممتعة في عالم المسرح الجزائري وبالأخص في أحد دروبه: درب أحمد رضا حوحو، وإنارة لإحدى زواياه: الشرق الجزائري. تتكون لنا بعد الانتهاء من قراءته فكرةٌ

وافيةٌ عن جهود حوحو في المسرح وتكشف لنا جانبا آخر من جوانب شخصيته الأدبية لا يقل جدية وطرافة عن جوانبها الأخرى».

إجمالا، كانت مواضيع رضا حوحو تنطلق من الحياة اليومية، لكنها أيضا كانت تتنبأ أو تريد أن تلقي نظرة عما سيكون عليه الأديب بعد عقود من الزمن. إذ يذكرنا كتاب حوحو: « الأديب الأخير» بأسلوب ونظرة الأديب الفيلسوف الأنجليزي «ألدوس هيسكلي» الذي يبدو أن حوحو قد قرأ أعماله المترجمة إلى الفرنسية وتأثر بها بعض الشيء، فألدوس هيسكلي كان يدعو إلى عالم جديد رائع «قائم على الخيال العلمي للأدب الأنجليزي بحيث تتجاوز أن تكون مجرد رواية من الخيال العلمي فحسب، بل أنها تطرح أيضا أفكارا فلسفية عميقة تنبئ بالتحول الجذري في طبيعة الإنسان البيولوجية عن طريق الهندسة الوراثية.

هذا من ناحية الوقائع المادية والعلمية التي تملك كل شيء من أجل توفير السعادة الإنسانية، لكنها تدمره وتذهب به عكس ما تريد، حيث تفترض الرواية أحداثا مستقبلية مهولة، إذ تبدأ بزيارة رحلة من طلبة العلم المراهقين إلى أحد

المختبرات التي لها صلة بعلم الوراثة، حيث يتم تعريفهم بالآلية التي يتم بها إعادة إنتاج البشر وتقسيمهم إلى فئات على حسب دورهم في المجتمع.

والواقع أن رضا حوحو وظف ذلك في رؤيته للأدب بعد عقود وأزمان، نظرا لكونه أدرج هذه النظرة الاستشرافية بغاية معرفة التطور اللاحق الذي سيعرفه مسار البشرية فيما بعد بعامة والقصة بخاصة. وبالتالي حاول حوحو مبكرا الكتابة في الأدب الخيالي متسائلا عن وضعية الأديب في سنة 2073 بحيث نشج علة منوال الوضع الجديد الذي سيكون عليه الإنسان. وكتب قصة في هذا المجال بعنوان: «الأديب الأخير» مليئة بالمعاناة المرة والقاسية، تثير الأسى والانفعال، ويعلق الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ في كتابه «النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية» الصادر في الرياض، عن دار العلوم، ص. -164 173» قائلا: «تختلف قصة «الأديب الأخير» التي نشرها أحمد رضا حوحو عما سبق أن نوقش من قصص قصيرة، فهي قصة تحليلية اختير لأحداثها أن تقع في المستقبل القريب عام 1495 هجرية (2073)، حيث سيأتي يوم يضمحل فيه الأدب ويصبح الاشتغال فيه

عبثا، وتعاطيه جنونا، فيبقى في معزل مقبورا فيما بين دفات الكتب، فلا ينظر إليه إلا كما ينظر إلى النقد (العملة) الأثري القديم، ولا يزار إلا كما يزار الميت قديم العهد إلى أن يندرس رمسه، وتمحى آثاره فيصبح نسيا منسيا».

وها نحن أمام مقبلة ذكية بين زوال الإنسان الذي عرفناه في صورته الطبيعية واستبداله بكائنات اصطناعية تتحكم فيه الهندسة الوراثية. مما يغدو معه اختفاء الأدب والإبداع اللذان يشكلان حساسية إنسانية ليحل محلها تنميط الأذواق بفعل تحكم الآلة في وجدانه وصياغة أحاسيسه وذوقه. وهو ما نشهده حاليا من هيمنة تقنية الصورة والوسائط على الأدب والإبداع بشكل عام.

وهو ما يحاول محمد عبد الرحمن استنتاجه من خلال قراءته قصة رضا حوحو، إذ يقول «لقد تنبأ بما سيحدث من صراع أليم بين مادية المجتمع، ومثالية من فطروا من أمثال هذا المجتمع على حساب الفن والجمال» (ص. 172 من نفس المرجع).

وبالتالي فهي نظرة نابعة من معرفة الواقع الاستعماري المرير الذي نهب خيرات الجزائر، وعمل على طمس

شخصيتها، مستلهما في ذلك أسلوبا بعيدا عن تحريف الواقع، مما دفع إلى استلهام رؤية الأديب الفيلسوف الأنجليزي فيما سيئول إليه الأدب في المستقبل، وهو يدخل طبعا، في إطار ما يسمى بالخيال العلمي..

ومن مؤلفات رضا حوحو التي لا تزال مخطوطة هناك كتاب بعنوان «في الأدب والاجتماع».

كتب أحمد رضا حوحو الشعر ولكنه لم ينجح فيه، ومعظم ما كتبه كان في الشعر الملحون، وهو شعر بالعامية الجزائرية الخاصة بالجنوب الجزائري، وقد نشر معظمه في مجلة «الشعلة» في باب «تحت السياط نغني» بتوقيعه أحيانا، وأحيانا أخرى بتوقيع مستعار أو بلا توقيع.

كتب أيضا في الصحافة فكانت له مقالات في جريدة البصائر أثارت الكثير من الجدل والنقاش بعناوين مثلا : ما لهم لا ينطقون؟ ما لهم يثرثرون؟،

في 29 مارس 1955، استشهد حوحو، ويقول الكاتب الجزائري الأستاذ محمد الصالح رمضان، في كتابه «شهيد الكلمة رضا حوحو»، الصادر في الجزائر، عن وزارة الثقافة والسياحة، سنة 1985. في الصفحات 19 - 20...).

«وأخيرا اختفى من الساحة الأدبية في الجزائر الأديب اللامع، وأفل هذا النجم الساطع، من السماء المتلبدة بالغيوم (...) مساء يوم 29 مارس 1955 بقسنطينة، أثر انفجار مهول بمقر البوليس الفرنسي (في رحبة الصوف) قلب المدينة النابض....»

إذ راحت قوة من الجيش الفرنسي، لكي تطوق المدينة كلها عبر قيامها بعمليات تفتيش واسعة جمعت نحو ثلاثين ألف مواطن «حشدوا حشد السردين في (ساحة الكدية) قرب المحافظة المركزية للشرطة، كما طوقوا مدارس الحركة الإصلاحية وحملوا التلاميذ والمدرسين في شاحنات».

أما حوحو وبعض الشخصيات من الأعيان والمثقفين الذين يرى فيهم الفرنسيون خطرا دائما عليهم، وطاقة حية تدفع في طريق استمرار الثورة حتى تحرير البلاد ، فقد اقتحموا عليهم منازلهم في الليل البهيم..»وأهالوا عليهم التراب لكي لا يعثر عليهم أحد» (ص.21).

هكذا اغتيل أحمد رضا حوحو على يد المنظمة الإرهابية، «بحيث لم يعثر على جثمانه وكان الفقيد قد اعتقل قبل هذه الحادثة بحوالي شهر وعذب تعذيبا منكرا، ثم هدد تهديدا

صريحا - كما يروي أحد أصدقاء حوحو نقلا عنه، بأنهم سيعتبرونه مسؤولا عن أي حادث يحدث بالمدينة، وأن جزاءه سيكون حينئذ الإعدام» (نفس المرجع، ص. 22).

هكذا كان مصير أول أديب جزائري شهيد جمع بين الممارسة والكتابة، إذ يحرض من خلال هذه الأخيرة على رفض الاستعمار وأعوانه، ملتزما الصدق في قضايا شعبه العربي الإسلامي، لذا لقى مصرعه بشكل وحشي، والواقع أنه قتل من جراء التعذيب الوحشي الذي طاله، لكونه عبر عن رفضه للاستعمار ودعاويه حول «تمدين» الشعب الجزائري بواسطة العنف والقتل.

وفي الحقيقة إن أمثال رضا حوحو من الأدباء والمفكرين الجزائريين كثيرون، إذ أن أغلبهم لقوا حتفهم بنفس الطريقة «جزاء» لمواقفهم الشريفة ورفضهم للذل والهوان والعمالة.

وفي الختام إذا توفي أحمد رضا حوحو، بيد أنه ترك أعمالا أدبية ذكرنا بعضها، وربما ستفاجئنا الأيام بكتابات أخرى لم تصل إلى المهتمين -حتى الآن- بهذا الأديب وبنتاجه الأدبي متعدد الوجوه وفي مختلف المجالات الفنية والإبداعية،

والتي من خلالها عبر عن مداخل وأعماق المجتمع الذي عايش همومه فظهرت حية في كتاباته.

والواقع أن عمره الإبداعي استغرق (إن صح التعبير) ما يقارب العشرين سنة، لكن الدكتور أحمد أبو الدهمان يشير إننا لم نعط هذا الأديب حقه نظرا لأنه لم يعتني به لا في الجزائر ولا في السعودية، بحيث تظل أعماله المخطوطة المتواجدة سواء في أرشيفه العائلي أو الموزعة لدى أصدقائه في الحجاز وغيرها من أماكن أخرى دون بحث علمي يوفيها حق قدرها.

مفدي زكريا، شاعر
الثورة الجزائرية
«وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر»

مفدي زكريا، شاعر الثورة الجزائرية «وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر»

إنه شاعر الثورة الجزائرية، وكاتب نشيدها الوطني «قسما بالنازلات الماحقات» وأحد أبنائها الذين نشئوا على حبها ودفعوا الغالي والنفيس من أجلها، لم يتكلم في أشعاره عن سلمى أو ليلي المعشوقة الحبيبة، بل ليلاه كانت الجزائر وسلمى كذلك.

الحب أرقني واليأس أضناني والبين ضاعف آمالي وأحزاني

والروح في حب ليلاي دمع فأمطره شعري ووجداني

لم يكن ذلك الشاعر الذي يطل على قضايا شعبه من برج عاجي، كما لم يكن منظرا أو فنان فحسب، بل دخل معترك

الحياة وشارك في هموم شعبه بقلمه والتزامه السياسي ودفع من أجل ذلك ثمنا غاليا، فلقد عرف سجون الاستعمار الفرنسي عدة مرات، حيث سجن سنة 1937 بتهمة التآمر ضد الدولة الفرنسية، وهو نفس التاريخ الذي سجن فيه الزعيم والأب الروحي للحركة الوطنية مصالي الحاج. إذ بقي مفدي زكريا مسجونا حتى سنة 1939، وفي هذه الفترة ألف الكثير من القصائد والأناشيد ومن بينها رائعته «أعصفي يا رياح «التي نظمها في زنزانة رقم 65 يوم 29 نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1937، وفي سنة 1956 صدر أمر من جبهة التحرير الوطني إلى المحكوم عليهم بالإعدام أن يرددوه قبل صعودهم إلى المقصلة (أنظر ديوان اللهب المقدس، بيروت، منشورات المكتب التجاري، 1961 - ص. 74).

يقول في هذه القصيدة:

اعصفي يا رياح واقصفي يا رعـود

وأثخني يا جراح واحدقـي يا قيـود

نحن قوم أباة

ليس فينا جبان

قد سئمنا الحياة

في الشقاء والهوان

لا نمل الكفاح لا نمل الجهـاد

في سبيل البلاد (...)

بالإضافة سجن مرة ثانية سنة 1940 لمدة ستة أشهر، وفي سنة 1945 (أثناء الأحداث الدامية التي عرفها الشرق الجزائري والتي ذهب ضحيتها خمسة وأربعون ألف شهيد: أطفال، شيوخ ونساء ورجال) حكم عليه بثلاثة أشهر، وأعيد مرة رابعة إلى السجن سنة 1949 لكي يقضي شهرين، ثم لمدة ستة أشهر في سنة 1951، علاوة أنه سجن خلال ثورة التحرير من 19 أبريل 1955 إلى 1 فيفري 1959. وخلال هذه (الإقامات) كان لا يتوقف أو يكف عن الإبداع والكتابة والعمل السياسي الذي وهبه كل وقته وجهده، وأمله الوحيد فقط هو أن تعيش الجزائر حرة مستقلة.

والواقع أنه مفدي زكريا عايش في سجون الاحتلال كل أصناف التعذيب والتنكيل، حيث يروى على لسانه،

أن المستعمر أحضره كي يشاهد تعذيب أحد المناضلين الجزائريين الذي استشهد جراء ذلك في سجن «بربروس» وكان ذلك في شهر جويليت سنة 1955، أثناء مشاهدته ذلك المشهد المحزن، فأطلق ينشد قائلا:

قام يختال كالمسيح وئيدا ... يتهادى نشوان يتلو النشيدا

باسم الثغر كالملائك أو ... كالطفل يستقبل الصباح الجديدا

شامخا في أنفه جلالا وتيها ... رافعا رأسه ينادي الخلودا

اشنقوني فلست أخشى حبالا ... واصلبوني فلست أخشى حديدا

ومما لا شك فيه أن شجاعة الشهيد كانت سببا مباشرا وسريعا في إلهام الشاعر وجادت قريحته الشعرية بما خلد الشهيد، كما أكد أن الفن كما يقول كاتب ياسين «..يكون قنبلة أو لا يكون»، فيما الشعر إحساس إنساني رائع خاصة إن كان مدعما بالروح الوطنية وبالجهاد، فلم يخش الشهيد التعذيب الذي مارسه المستعمر ضده، بل رأى أن كل من يريد أن يبقى «أنفه شامخا» عليه أن يضحي ويحتقر جلاده مهما كان الثمن.

اختلف الباحثون والمهتمون حول تاريخ ميلاده مفدي زكريا، وجلهم يتفقون على أن سنة ميلاده هي 1908، ويرجع الدكتور محمد ناصر، الباحث والناقد والأديب الجزائري ناتج عن أسباب ثلاثة وهي:

- أن الشيوخ والأقارب يرجعون ولادته إلى سنة 1908

- هناك إشارة في كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحديث» لمحمد الهادي السنوسي الصادر في تونس سنة 1926، نجد نبذة عن حياة مفدي زكريا كان وجهها إلى صاحب الكتاب ويذكر في الترجمة أنه ولد سنة 1908.

- يرى الدكتور ناصر أن الشاعر تزوج وأنجب سنة 1926، ويستبعد أنه فعل ذلك وعمره ثلاثة عشر سنة.

غير أن الشاعر نفسه أجاب على سؤال وجهه إليه الكاتب الجزائري، بلقاسم بن عبد الله، الذي أصدر معظم اللقاءات عن ومع مفدي زكريا في كتابه بعنوان: «مفدي زكريا شاعر مجد ثورة، صدر في الجزائر، عن المؤسسة الوطنية للكتب، سنة 1988» (ص. 15 وما بعدها).

كما أجاب مفدي زكريا عن السؤال التالي:

-«بادئ ذي بدء، هل لك أن تقدم للقراء نبذة عن حياتك عامة ونشاطاتك الأدبية والوطنية خاصة؟

قال الشاعر ردا على هذا السؤال «ولدت في قرية «بني يزقن» بواحات الجنوب الجزائري، وقريتي هذه من قرى «وادي ميزاب» السبع، وهي معروفة عند المؤرخين الأجانب «بالمدينة المقدسة» وذلك سنة 1913، فيما يقال أن والدي -رحمه الله- كان تاجرا بمدينة عنابة (بالشرق الجزائري) وجدي الشيخ الحاج سليمان كان رئيسا «للاتحاد الميزابي» أيام كان وادي ميزاب محافظا على استقلاله الذاتي، تربطه بالسلطة العثمانية المركزية معاهدة حماية، ظلت سارية المفعول، طوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر، إلى حدود سنة 1880. وأسرتي تنحدر من بني رستم (نسبة للدولة الرستمية) الذين أسسوا تيهرت (تيارت حاليا) في القرن الثاني من الهجرة، أول دولة جزائرية ذات سيادة كاملة غير مرتبطة بأي تبعية، لا إلى الحفصيين، ولا إلى بني زيان، دامت زهاء قرنين، تحقق على عهدها -لأول مرة في التاريخ- توحيد المغرب العربي الكبير ونظام الاشتراكية الإسلامية.

بالإضافة يتابع الشاعر قائلا:

«واصلت دراستي الابتدائية والثانوية والعالية بحاضرة تونس الزيتونة، والصادقية والخلدونية، ومعهد الآداب العليا بالعطارين.

حياتي الأدبية متصلة جذريا بنشاطي القومي وقد شرعت في قرض الشعر سنة 1925 أي في الثانية عشر من عمري».

وبعد انتهاء الشاعر من دراسته وقطع شوط كبير فيها، عاد إلى الجزائر ودخل معترك الحياة السياسية وانتسب إلى «نجم شمال إفريقيا» الذي أسسه مصالي الحاج، وهو أول حزب نادى بتقرير المصير وبتحرير واستقلال الجزائر. إذ كانت هذه الفترة بالنسبة لشاعرنا فترة بحث عن الذات، وامتدت إلى سنة 1936، وبداية من هذه السنة انضم إلى الحركات الوطنية التحررية، حيث من خلالها تبلورت شرارة حرب التحرير الوطني التي اندلعت في أول نوفمبر من سنة 1954. ناهيك أن كل أشعاره كانت انعكاسا لهمومه السياسية التي عانقت المد الثوري التحريري، إن لم يكن قد حول الكلمة إلى بارود في معركة استقلال الوطن، مساندا كل

الثوريين الذين حملوا السلاح في سبيل الحرية والاستقلال، وكان ينشر إنتاجه الشعري في الجرائد والمجلات التي كانت تصدر آنذاك في الجزائر لاسيما في صحافة أبو اليقظان التي كانت تعتز بإنتاجه وتنوه بمواقفه وأفكاره الوطنية، حيث ارتمى الشاعر في أحضان الثورة الجزائرية مع جبهة التحرير الوطني، وألف النشيد الوطني «قسما» وكتبه في الزنزانة رقم 69، بتاريخ 25 أبريل/ نيسان 1955». إذ ظل وما يزال النشيد يدوي في المشرق والمغرب، بل على المستوى العالمي في أتون حروب التحرير حيث يقول في النشيد:

قسما بالنازلات .. الماحقات والدماء، الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات..الخافقات، في الجبال الشامخات، الشاهقات

نحن ثرنا، فحياة أو ممات.. وعقدنا العزم..أن تحيا الجزائر

فاشهدوا. فاشهدوا..فاشهدوا.

نحن جند، في سبيل الحق ثرنا وإلى استقلالنا، بالحرب قمنا

لم يكن يصغى لنا، لما نطقنا.. فاتخذنا، رنة البارود وزنا..

وعزفنا، نغمة الرشاش لحنا.. وعقدنا العزم، أن تحيا الجزائر

فاشهدوا. فاشهدوا..فاشهدوا.

وبالإضافة إلى قناعته المطلقة بتحقيق حرية الوطن الجزائري بالسلاح، كان يؤمن بوحدة المغرب العربي الكبير، ويقول في ذلك (ص. 20 من كتاب : مفدي زكريا، شاعر مجد ثورة):

«دأبت منذ سنة 1955 في الدعوة لتحقيق هذه الفكرة السامية (وحدة المغرب العربي) والتغني بها وقيادة وفود حزبية لكل من تونس والمغرب والجزائر لتركيز أسسها عام 1939، وقد عمدت في شق طريقي لتركيز هذه العقيدة، بتخليد بطولات وكفاح أقطارنا المغربية، وتخليد كفاح زملائي في النضال من زعماء هذا المغرب العتيد، تلك البطولات التي ما انفك يمجدها المسئولون من أحرار الجزائر، في كل مناسبة والتي لا يستطيع التاريخ النزيه أن يجحدها أو ينتقص قيم رجالها مهما توزعت الآراء واختلفت أو اتفقت أساليب الأنظمة السائدة».

وعن سؤال وجه إليه: ما موقفك من الشعر القديم والجديد، أو الحر أو العمودي؟

يجيب قائلا: «لا يوجد في اعتقادي وفي مفهوم عقلاء بني آدم، شعر قديم أو جديد، فأما شعر وأما لا شعر وكفى،

وأنا أؤمن بالأصالة وبصلة الرحم بين المعاني والكلمات، وبالنبض الموسيقي المتجاوب مع نبضات العقل، وما عدا ذلك فسموه إن شئتم نثرا مجنحا، وإن خلاص البيان وأصالة الكلمة فسموه رطانة ولغوا وهراء، وإذ شذ عن ذلك فسموه شعر الخنافيس، أو شعر الهيبي، أو شعر النايلون، أو شعر الساندويتش، أو ما شاء لكم من الخيال، والموضوع على بساطته يحتاج إلى كثير من الإسهاب».

وكان مفدي زكريا من أبرز الشعراء في الحركة الوطنية الجزائرية .. اشترك في تأسيس حزب الشعب وظل من أبرز دعاته خطيبا وشاعرا.

ويقول الشاعر الجزائري محمد الأخضر ألسائحي في مجلة «نوفمبر الصوت والصدى، ص. 31، (ص.83 من كتاب مفدي زكريا..).

«إن الثورة عند مفدي زكريا لم تكن وليدة غرة نوفمبر 1954 وإنما اعتنقها مبتدءا منذ العشرينيات من القرن الماضي، أي منذ بداية وعيه السياسي وهو لم يتخط بعد حدود العقد الثاني من عمره، لكنها شأن أي مولود جديد، بدأت عنده ضعيفة «دون أن تهبط إلى مستوى الإصلاح»

مولود فرعون وآسيا جبار.. في إيصال صوت الجزائر العربية باللغة الفرنسية، سواء محليا أم قوميا أم عالميا، وهي اللغة التي كان يتقنها ويعبّر بها عن همومه وآلامه وطموحاته. لكن مالك حداد عندما كانت تُوجه إليه الدعوات لزيارة بعض العواصم العربية، كان يجد نفسه مضطرا لمخاطبة الناس هنالك باللغة الفرنسية. وكان يتساءل دائما حول موضوع عدم مقدرته على التكلم بالعربية، اللغة التي تربطه بهذا الجمهور الذي كان متشوقاً إليه والذي كانت الجزائر بالنسبة إليه قلعة الحرية والاستقلال. كان لسان حال مالك حداد يقول للجمهور: لماذا لا تفهمون ما أقول، لماذا لا أستطيع التكلم معكم باللغة التي تربط مصيرنا وطموحاتنا المشتركة، عن الواقع الجزائري، وعمن كان السبب في حرماني من التحدث إليكم باللغة التي تفهمون، والتي هي وعاء وجداننا؟ وكان يردد: أنا الجزائري المستعمر من دولة فرنسا لا أستطيع أن أخاطبكم بلغة الأجداد، أي اللغة العربية، أتيت لأعبر لكم بلغتها؟ والأدهى من ذلك أني صرت بحاجة إلى مترجم لكي يوصل لكم أفكاري ويفسّر لي تساؤلاتكم؟ كان هاجس اللغة حاضراً بقوة وباستمرار عند مالك حداد.

كانت هذه التساؤلات هي محور معظم أعماله الإبداعية، وهي التي دفعت به إلى العزوف نهائياً عن الكتابة باللغة الفرنسية، ولاسيما عندما أعلن جملته المشهورة «اللغة الفرنسية منفاي» التي جلبت له الكثير من المتاعب والمشاكل، وبقي مخلصا لمبدئه الذي أعلنه بعد الاستقلال والذي أراد أن يقول من خلاله: ذهب الفرنسيون مع لغتهم، وعدنا إلى بلدنا بلغتنا، ويجب أن نكتب ونعبر بها». وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحقق حلمه، وهو الكتابة بلغة الضاد، فقد بقي وفيّاً لموقفه ذاك.

بعد عودته إلى الجزائر الوطن سنة 1965، عزف مالك حداد عن الكتابة وهو في أوج عطائه الإبداعي، بعدما تعرَّف على كُتاب اللغة الفرنسية الكبار وعاشر معظمهم، وناضل في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، و«هو حزب لم يكن إلا شكلا من أشكال الاستعمار وأدواته»، هذا الحزب الذي كرس له مالك حداد وقته ومجهوداته وحلمه الثوري، معتقدا أنه ليس كالأحزاب الأخرى، يمكن أن يساند شعبه من أجل الاستقلال والتخلص من نير الاستعمار، ولاسيما عندما وافق على مشروع القوانين الخاصة تجاه الشعب الجزائري سنة 1956.

ولد مالك حداد في عاصمة الشرق الجزائري، قسنطينة، مهد الحركة الإصلاحية بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ بشير الإبراهيمي، من خلال مجلتَيْ «الشهاب» و«البصائر»، والتي أنشأت المدارس لتعليم اللغة العربية، غير أن مالك حداد تعلم الكتابة والقراءة في المدرسة الابتدائية ثم الثانوية باللغة الفرنسية، وواصل تعليمه العالي فيما بعد في مدينة «إيكس ـ أون ـ بروفانس» الفرنسية، حيث درس الحقوق، لكنه تركها قبل أن يُتمَّ فيها دراسته ليحترف الكتابة.

أصدر ديوانه الشعري الأول بباريس عن منشورات جوليارد سنة 1956 بعنوان «الشقاء في خطر» والمتأمل في العنوان يلاحظ تشاؤم الكاتب من مرارة الواقع، فما معنى أن يكون الشقاء غير الخطر والمأساة؟ أو لا يكون في خطر؟ وما معنى أن لا يقارن الشقاء بالخطر؟ إنها سخرية مالك حداد من قدره وقدر أبناء وطنه، سخرية من القادمين «لتمدين» الشعب الجزائري بالعنف والرصاص واستعمارهم كليا، ماديا ومعنويا وثقافيا، أرضا ولغة ورسالة. فمالك حداد كغيره من الكتاب الجزائريين الذين ولدوا في منطقة الشرق

الجزائري، لم ينسَ أحداث مايو 1945 حيث شاهد فرنسا تحتفل بالاستقلال في بلدها، وتقتل الأبرياء في الجزائر، أكثر من 45 ألف شهيد دون أن تفرق بين طفل وامرأة وشيخ، هذه الكارثة الإنسانية التي اقترفتها أيادي الحقد الدفين والتي أدت في ظرف أسبوع واحد إلى إبادة منطقة بأكملها، غير أن هذه الكارثة أدت في الوقت نفسه إلى بلورة الفكر النضالي التحرري وترسيخه، ليس لدى السياسيين فحسب، بل لدى الناس البسطاء كافة، وفي ضمير الأمة أي المثقفين الذين تكشفت لهم أساليب المستعمر ومصيرهم هم إن ارتضوا هذه الإهانات وهذا الدمار والتزموا الصمت.

انطلاقا من هذه الأحداث التاريخية المفجعة، ومن المعاملات غير الإنسانية، التي ارتكبها المستعمر ضد الشعب الجزائري، لم يكن بوسع مالك حداد إلا أن يعبّر عن هذا الشقاء وهذا الجحيم بوصفه الخطر الماثل والملموس الذي كان يعانيه الجزائري يومياً، وذلك منذ أن وطئت جيوش الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر. ويعتبر مالك حداد محظوظاً بالنسبة إلى معظم أقرانه، فقد ولد في أسرة متوسطة الحال، وكان أبوه سليمان حداد معلماً انتقل من منطقة بلاد

القبائل ليستقر في قسنطينة. وكان لمالك حداد فرصة جيدة لتلقي العلم. كان مولَعاً ببعض الكتاب الفرنسيين مثل «رولاند دوكان» وأفكاره السياسية والاجتماعية... كان ذلك يحفزه على الكتابة بدءاً من العام 1948 في الصحافة الفرنسية الشيوعية شعراً ونثراً، إذ نشر في جريدتَيْ «الجزائر الجمهورية» و«ليبرتي» (الحرية) اللتين كان بشرف عليهما المناضل الجزائري بشير الحاج علي. بقي مالك حداد وفيا لأفكاره الشيوعية حتى اندلاع ثورة التحرير.

صدر لمالك حداد سنة 1958 رواية بعنوان «الانطباع الأخير» أبرز فيها العلاقة المتناقضة والمعقدة بين فرنسا والجزائر، والخطر الماحق الذي تُعِدُّه فرنسا للجزائر بمعاملاتها ودمارها للبلاد والعباد، رغم قصة الحب المشوقة التي تعيشها فتاة فرنسية مع شاب جزائري، وهي علاقة مشوبة بالاضطرابات والمخاوف.

وفي العام 1959 صدرت له رواية بعنوان «سأهبك غزالة» يتفق أغلب المهتمين بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على أنها سيرة ذاتية للكاتب، الذي ولد تحت نير الاستعمار وجاء إلى فرنسا، ورأى المشاكل التي تتخبط

فيها بلده وكيف ينادي الفرنسيون بالديمقراطية والمساواة والأخوة والعدالة، ولكنهم يدمّرون الجزائر ويزرعون فيها الحقد والرعب والتشرد. ويتساءل من خلال هذه الأوضاع عن العلاقات التي تربط الشعبين، وعن مصيرهما. وكانت ثورة التحرير تريد للشعب الجزائري أن يقرر مصيره بيده. وكل ذلك عبر استقراءات ومقارنات ماضي وحاضر ومستقبل الجزائر من خلال تطور الأحداث، فمن سياسة الاستعمار الكلي إلى سياسة «الإدماج»، إلى محاولة محو هوية شعب بكامله.

من الناحية الفنية، تعتبر هذه الرواية من أنجح الأعمال الأدبية التي كتبت في ذلك الوقت، حيث عالج المؤلف مسألة المنفى، وهي مبنية بشكل رواية داخل رواية بلغة سلسة وجميلة، يلتقي فيها الجنوب بالشمال؛ ولعلّها من الأعمال الروائية الأولى التي وظفت موضوع الصحراء حيث تجري معظم أحداثها، وحيث استطاع مالك حداد من خلالها أن يدخلنا عالم الرمال بشكل فني دقيق، قارنا ذلك كله بالحديث عن الحي اللاتيني في باريس، وعن نشوء علاقة بين فتى صحراوي وفتاة باريسية راح يحدثها عن معاناة الشعوب المضطهدة.

في العام 1960 صدر للمؤلف رواية جديدة بعنوان «التلميذ والدرس» وهي كأعماله الأخرى تندد بالاستعمار، وهي صرخة في وجه اللامبالاة واللا مساواة، وهي من ناحية أخرى تمثل الحلم ببناء غد أفضل، يسوده الحب ووضع حد لهذه «الدروس الحضارية العنيفة»، وذلك من خلال قصة حب بين جزائري وفرنسية، عبر من خلالها عن التفاهم المستحيل بين الغربي الظالم والعربي المقهور إذ كان ذلك في ظل القهر الاستعماري وبطشه ومعاملته للآخر وكأنه لا شيء أو لا قيمة له كإنسان.

وفي العام 1961 صدرت له رواية أخرى بعنوان «رصيف الأزهار لا يجيب» (وقد استوحى مالك حداد عنوان الرواية من أجواء دائرة باريس الأولى، من مكان تباع فيه الورود طيلة السنة، على «رصيف مركز الشرطة» حيث كان يجري تعذيب الجزائريين المناضلين من أجل الاستقلال أثناء استنطاقهم).

في الصفحة 46 من هذه الرواية التي ترجمها حسن حنفي وصدرت في الجزائر عن ديوان المطبوعات الجزائرية، يقول مالك حداد: «لكن السياسة تقتحم عالمنا من دون استئذان

ولا اختيار، أليس التفكير في الوطن ومصيره سياسة؟ أليس التفكير في المقاومة والاستشهاد سياسة؟ سيأتي ذلك الحين الذي يتحتم فيه أن نمجد بطولات المجاهدين (وله في ذلك الوقت معنى المقاومة والنضال من أجل الاستقلال) الذين شاركوا في الكفاح من غير أن يرتدوا اللباس العسكري، كان خالد يتمنى أن تندلع الحرب (وخالد هنا هو مالك حداد) وفي نفس الوقت كان متخوفا منها مثلما يتخوف الطبيب الجراح من نتائج العمليات الخطيرة، ومع ذلك، لم يكن هناك حل آخر لأن القوة لا تعترف بسوى القوة». وقد عبّأ مالك حداد قراءه بقلمه ولكن بلسان المستعمر، اللغة الفرنسية، الذي كان يستعملها ـ مكرهاً لا بطلاً ـ كأداة إبداع وتواصل لأفكاره وأفكار ثورة التحرير. وفي رأي العديد من النقاد أن كتابة مالك حداد تنتمي إلى المدرسة الواقعية، وقد عاصر معظم أعماله فترة الحرب، وهي تنقل لنا واقعا ممزقا وأبطاله صور من هذا الواقع.

تُرجِم جُلُّ أعمال مالك حداد إلى اللغة العربية، في الجزائر ولبنان ودمشق، وكان يُعتبر من أهم المبدعين المغاربيين. انقلبت الأمور بعد حصول الجزائر على الاستقلال، فقد

اتخذ مالك حداد موقفا واضحا من الكتابة بلغة الآخر، وأراد أن يجتهد ليعبر بلغته الأم التي لم يتمكن في النهاية من الكتابة بها، فانقطع عنها، وكلفه هذا الموقف الكثير، إذ تناساه بنو جلدته، قبل أن ينساه الآخرون، فأصبح مجرد اسم بين أسماء الذين كتبوا بالفرنسية. ويكفي أن نقوم اليوم بجرد للكتب الصادرة باللغة الفرنسية والتي تؤرخ للأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية، حتى نرى مدى تجاهله شبه التام. ثمة دراسة أكاديمية خصه بها الشاعر والكاتب التونسي طاهر بكري بعنوان: «مالك حداد: الأعمال الروائية، من أجل شعرية مغاربية باللغة الفرنسية» صدرت في باريس عن منشورات «هارماتان» سنة 1986، وهي في الأصل رسالة دكتوراه. كما تناول أعماله الروائية الدكتور عبد القادر بن اعراب في إطار رسالة «المتريز» (شهادة تمهد للحصول على «الماجستير») التي ناقشها في جامعة «إيكس ـ أون ـ بروفانس» بعنوان «العمل القصصي في روايات مالك حداد» سنة 1984.

بالإضافة إلى هذه الأعمال الأكاديمية، ثمة أبحاث جامعية في الجزائر لم تطبع، وهو يُذكَر فيها كاسم فقط، وذلك

عندما يتعرض الكتاب والنقاد للحديث عن الأدب المغاربي، من دون أن يتوقفوا عند كتاباته وإبداعاته، وكان إلى حد قريب شبه مقصيّ عن الأنشطة الثقافية وبخاصة في الجزائر، رغم أن الرجل عاد إليها بعد سنة 1965، وكان مسئولا ومستشارا ثقافيا في الدولة الجزائرية، حتى أنه أشرف على رئاسة اتحاد الكتاب الجزائريين لسنوات عدة، وإليه يعود الفضل في ترسيخ بعض الأنشطة الثقافية، كمهرجان السينما الإفريقي. كما أنه أشرف على صدور مجموعة من المجلات نذكر منها على سبيل المثال مجلة «آمال» التي لعبت دورا مهما في فتح صفحاتها لأدباء السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي في الجزائر. ولم تخصص له ندوات أو لقاءات على نحو ما يُخصص للمبدعين الآخرين، باستثناء الجائزة التي خصصتها له الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي والتي تُمنح لأهم عمل قدمه المبدعون الجزائريون في مجال الرواية باللغة العربية. واللافت للانتباه أن المبدعة أحلام مستغانمي هي التي أهدت إليه عملها الأول، «ذاكرة الجسد»، وقد جاء في الإهداء: «إلي مالك حداد.. ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته.. فاغتالته الصفحة البيضاء.. ومات متأثرا بسلطان صمته ليصبح

شهيد اللغة العربية، وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها»!

كتب مالك حداد مجموعة من السيناريوهات للتلفزيون الجزائري، قام بتمثيلها كبار المبدعين في مجال المسرح والسينما.

قبل مالك حداد، كان كاتب ياسين قد قال: «إما أن يكون الفن قنبلة أو لا يكون»! بيد أن هذه المقولة رغم حدتها نوقشت ولم تزعج كاتب ياسين أو غيره، أما مقولة مالك حداد « اللغة الفرنسية منفاي» فيبدو أنها أزعجت الكثيرين. لقد احترم الرجل ما قال، وصمت، وراح يعمل في مجالات ثقافية أخرى، لقد كان لكل من الرجلين موقفا من الكتابة والثورة، وهما إضافة إلى ذلك من المنطقة نفسها، وكلاهما كانت لمقولته صدى واسع عند المثقفين والكتاب، وهل يمكن لنا أن ننسى كاتب ياسين ومالك حداد؟ إنهما رمزان ومعلمان بارزان في الأدب الجزائري، ومبدعان مهمان، كلاهما اكتوى بأحداث 8 مايو 1945، وتألم منها كثيرا وعن قرب، وكلاهما كتب عن هذه الأحداث التي عاشها في أعماله الإبداعية، والفارق الوحيد بينهما أن حداد لا ياسين

هو الذي رُمِيَ في غياهب الصمت والتجاهل واللامبالاة والنسيان! والسؤال الكبير هو: لماذا؟ يقول الدكتور عمر بن قينة في كتابه «أعلام وأعمال في الفكر والثقافة»، الصادر في دمشق عن اتحاد الكتاب العرب، سنة 2000 ما يلي: «أما مالك حداد الجزائري العربي المضطهد، فقد ثار الإنسان الجزائري في أعماقه، فحاول رفض واقعه أملاً في تجاوزه، كما أعلن عداءه للاستعمار، فدفع به إلى زاوية مظلمة محاصرا بصمت مطبق». ويُرجِع بعض النقاد هذا النسيان إلى مساندة مالك حداد الحركة الانقلابية التي قام بها بومدين سنة 1965 ضد نظام بن بلة، ويطبقون عليه مقولة غرامشي «المثقف العضوي» الذي ساند بدون نقد ذاتي ودون مراعاة للمساحة الفكرية. صحيح أن مالك حداد ساند النظام الجديد وقام بخدمته، ولكن مثقفين كُثُر قاموا بالدور نفسه أيضا، أما أن يُنسى مالك حداد كمبدع وككاتب نسياناً تاماً فذلك يبقى سؤالاً بل لغزاً يبعث على الحيرة.

بمناسبة سنة الجزائر في فرنسا، أعيد طبع ديوان مالك حداد وهو بعنوان «أسمعك وأكلمك» عن منشورات «بوشان» بباريس، سنة 2003 باللغة الفرنسية. كما نظمت

مكتبة معهد العالم العربي بمناسبة عيد القراءة الذي تنظمه وزارة الثقافة الفرنسية مرة كل سنة وبالتعاون مع سنة الجزائر في فرنسا تكريما له، وأعادت طباعة روايته «سأهبك غزالة»، ونشرت ملفا بيبليوغرافيا حوله، بكل ما كتبه وما كتب عنه، إضافة إلى تنظيم قراءة ممسرحة لروايته «سأهبك غزالة».

أسهم مالك حداد في الكتب التالية:

ـ المرأة الجزائرية (بالفرنسية) تأليف مالك حداد ودومنيك ديبوا ولويزة غانم، الجزائر، وزارة الثقافة والإعلام. (د.ت).

ـ محمد إسياخم، كاتب ياسين، بن عمر مدين، إسماعيل آيت جعفر، الصادر في الجزائر، عن منشورات بوشان، سنة 1978 باللغة الفرنسية.

ـ الجزائر، روايات الثورة، مارسيل موسى، مالك حداد، موريس كلافال، محمد ديب، وآخرون، باريس، أومنيبوس، سنة 2002 باللغة الفرنسية.

لمزيد من المعلومات نشير إلى المراجع التالية التي تناولت مالك حداد أو الأدب المغاربي بعامة:

بالفرنسية:

- Déjeux (Jean), Bibliographie méthodique et critique de la critique de la littérature algérienne de langue française 1975-1977, Alger, SND, 1979

-Déjeux (Jean), Situation de la littérature maghrébine de la langue française (1920-1978), Alger O.P.U, 1982.

- Bonn (Charles), Bibliographie de la critique sur les littératures maghrébines, Paris-Montérial, l'Harmattan, 1996.

-Miliani (Hadj), Etude et recherches sur la littérature maghrébine :Répertoire des thèses et mémoires sur la littérature maghrébine de langue française soutenus dans les universités algériennes et Françaises de 1962-1982, Oran, CRSSH, 1984.

- Arnaud (Jaqueline), Amacker (Françoise), Répertoire Mondial des travaux Universitaires de la Littérature maghrébine de langue française, Paris, Ed. l'harmattan, 1984.

بالعربية:

ـ عمارة، كحلي.- كتابة مالك حداد من منظور جمالية التلقي، (رسالة جامعية) جامعة وهران، 1999.

ـ الخطيبي، عبد الكبير.- الرواية المغاربية المكتوبة بالعربية والفرنسية، رسالة دكتوراه من الدرجة الثالثة، جامعة السوربون، باريس 1965. ترجم الكتاب محمد برادة تحت عنوان: «في الكتابة والتجربة»، بيروت، دار العودة، ط.1.1980

ـ أديب، باميا عايدة.- تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

ـ سامر.- مقاربة نفسية تحليلية للازدواج اللغوي لدى كاتبين جزائريين: مالك حداد وكاتب ياسين، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة، باريس، 1973 .

ـ مرداسي، عبد اللالي.- التاريخ والخطاب في الرواية الجزائرية، «رصيف الأزهار لا يجيب» لمالك حداد، ديبلوم

الدراسات المعمقة في الأدب، جامعة قسنطينة، معهد اللغات الأجنبية، 1976.

ـ بحوث في الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية، كاتب ياسين نموذجا، دكتوراه الدرجة الثالثة، باريس، 1978.

ـ علي خوجة جمال.- المسار الأدبي لمالك حداد، دكتوراه الدرجة الثالثة، أكس، مرسيليا، فرنسا، 1981.

ـ الزاوي، أمين .- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، بحث في تطور علاقة الإنتاج الروائي بالأيديولوجيا من 1930-1982، رسالة ماجستير، جامعة دمشق،1984.

ـ بكري، الطاهر.- نحو شعرية الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية: بحث في المؤلف الروائي لمالك حداد، دكتوراه الدرجة الثالثة، باريس، 1986، صدرت عن منشورات هارماتون.

ـ بكري، الطاهر.- إشكالية المنفى في «التلميذ والدرس» لمالك حداد، مقاربة دلالية بنيوية لنص أدبي مكتوب بالفرنسية، باريس، 1988 .

ـ بشير، عبد العزيز. - الجدل في «التلميذ والدرس» لمالك حداد،رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1996 .

ـ بكوش، محمد.- مالك حداد من الكلام إلى الصمت، نموذج للأدب الجزائري، مذكرة التأهيل، جامعة «إيكس ـ أون ـ بروفانس» مرسيليا، 1977.

ـ شويق، الحسين. - المنفى في مؤلفات مالك حداد، مذكرة ليسانس، جامعة فاس،1980.

ـ بن اعراب، عبد القادر.- تحليل السرد: روايات مالك حداد، رسالة التأهيل وتسمى المتريز، جامعة «إيكس ـ أون ـ بروفانس»، مرسيليا،1984 .

ـ بريهوم، فاطمة.- شخصية المثقف الجزائري في أعمال مالك حداد الروائية: «سأهبك غزالة» و«التلميذ والدرس» نموذجا، مذكرة ليسانس، جامعة قسنطينة، 1994.

ـ عمارة، كحلي.- كتابة مالك حداد من منظور جمالية التلقي، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 1999.

ـ ملف مالك حداد من خلال مجلة «EXPRESSIONS»: صدر هذا الملف ضمن المجلة التي تصدرها جامعة قسنطينة بعد انعقاد ملتقى «مالك حداد» الذي قام بتنظيمه

معهد اللغات الأجنبية يومي 24 و25 مايو/ أيار 1993. ويحتوي الملف على 12 مداخلة بالإضافة إلى بعض نصوص الأديب غير المنشورة، وقد ألقيت بعض المداخلات باللغة العربية. وقد صدر الملف في العدد الثالث، جوان/ حزيران 1994 بمجلة معهد اللغات الأجنبية في جامعة قسنطينة. تعبِّر المواد المنشورة في هذا الملف عن مستوى الاهتمام المتأخر بأدب مالك حداد، كما تكشف عن مدى التلقي لهذا الكاتب ومؤلفاته، إذ يلاحظ أن دائرة الاهتمام لم تخرج بعد عن طابع الاحتفالية بذكرى وفاته التي تكون عادة وراء هذا النوع من النشاط، كما أن المتابعات لم تتجاوز رصد الذكريات وأفق القراءة السياقية التي حولت نص الكاتب إلى مجرد « وثيقة تاريخية» تستلهم منها أحداث تاريخية ومواقف فلسفية أحيانا، كما تستخرج منها الأيديولوجيا والطوبوغرافيا أحيانا كثيرة، ويضيع بين هذا المسعى وذاك تلقي جماليات النص ومبررات وجوده وعدم الإجابة عن قلة أو (الغياب التام) في الاهتمام بهذا الأديب لمدة تجاوزت العقدين من الزمن.

عبد الحميد بن هدوقة
من أوائل المؤسسين للرواية الجزائرية باللغة العربية

عبد الحميد بن هدوقة
من أوائل المؤسسين للرواية الجزائرية باللغة العربية

مرت أكثر من عشر سنوات على وفاة الكاتب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة (توفي في 12 تشرين الأول ـ أكتوبر ـ 1996). هذا في الوقت الذي أثار هذا الكاتب الإشكالي تساؤلات مختلفة حول: الهوية الجزائرية، المرأة والإنسان، المثقف الجزائري، السلطة، كما عكس هموم الآخرين. فهو المحظوظ الذي استطاع أن يكتب بلغته الأم ويرفض أن يعيش في برج عاجي أو أن يطل من فوق على الآخرين ويكتب حسب الطلب، بل كان ذلك الإنسان المتحرر من جميع القيود:

فهو يحمل واجب الملتزم حسب ما يمليه عليه ضميره دون اللجوء إلى تشكيلات سياسية، تفرض عليه أن يفكر داخل إطارها أو انطلاقاً منها، حيث كان شجاعا دائماً ولم يسجن نفسه في أي سجن سياسي أو أيديولوجي، بل بقي على علاقة مباشرة مع المواطن الجزائري. إذ على الرغم من ثقافته ورغم المناصب التي تبوأها بقي مواطناً بسيطاً.

بداية ولد عبد الحميد في قرية المنصورة بولاية سطيف في الشرق الجزائري سنة 1925أ وتعلم اللغة العربية على يد والده، أما اللغة الفرنسية فقد أخذ منها حظاً من التعليم في المرحلة الابتدائية في قريته، وبعدها واصل دراسته في المدرسة الكتانية في قسنطينة، وفي العام 1949 سافر إلى مرسيليا وحصل على شهادة الإخراج الإذاعي باللغة بالفرنسية، وشهادة تقنية في تحويل المواد البلاستيكية، ورجع إلى المدرسة الكتانية ودرّس فيها لمدة عام، ثم شد الرحال بعد ذلك إلى تونس حيث مكث هنالك أربع سنوات، ونال خلالها شهادة العالمية في الأدب من جامعة الزيتونة، بالإضافة إلى شهادة في فن التمثيل العربي من معهد فنون الدراما في تونس.

السياسة والأدب

والواقع أنه بدأ الكتابة في الخمسينيات، حيث صدر له أول عمل سنة 1952، وهو نص شعري بعنوان: «حامل الأزهار». ثم دخل المعترك السياسي وأصبح عضواً في حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وبالتالي أميناً عاماً لها ثم رئيس جمعية الطلبة الجزائريين في تونس، حيث قبض عليه في 18 كانون الأول ـ ديسمبر ـ 1952 في تونس بعد قيامه بمهمة صحافية وذلك بتغطية تظاهرات نسائية في إحدى أحواز تونس، مما أدى إلى سجنه في زغوان بتونس. ثم فر من السجن مع مجموعة من رفاقه وعاد في سنة 1954 (سنة اندلاع ثورة التحرير الجزائرية) إلى الجزائر. لكنه عندما حدث الانقسام بين حركة انتصار الحريات الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني، استقال من كل مناصبه وكرس جهده لتدريس الأدب في المدرسة الكتانية. غير أنه نتيجة لملاحقته المستمرة، انتحل بطاقة تعريف جديدة باسم عبد الحفيظ مصطفى وتمكن من الحصول على جواز سفر كي يغادر مرة أخرى إلى فرنسا في عام 1955 . لكنه نتيجة للجهد والتعب المتواصل أدخل إلى المستشفى وطلب منه الأطباء تغيير عمله

مما جعله جعله يهتم بالكتابة والإبداع أكثر من أي شيء آخر، بخاصة التمثيل في السينما أو المسرح.

والواقع أن عبد الحميد كان على اتصال دائم بالثورة والثوار وكتب عنهم في الصحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك في تونس، كما عمل لاحقا في الإذاعة التونسية وكتب أكثر من مائتي تمثيلية بعد أن عمل قبل ذلك في فرنسا كمخرج متدرب في الإذاعة الفرنسية (1956 ـ 1958) .كما كانت له برامج مختلفة، كالبرنامج الأدبي «ألوان» وبرنامج «اختبر ذكاءك». إذ بعد استقلال الجزائر عمل مديراً للبرامج في هيئة الإذاعة والتلفزيون الجزائرية، ثم مديرا للإذاعتين العربية والقبائلية.

والحال أنه تزوج فرنسية وأنجب منها بنتاً إلا أنه أكمل حياته بعد ذلك مع امرأة جزائرية وأنجب منها ثلاثة أولاد.

ومما يذكر له بحق أنه كان يقف على قدمين ثابتين في كل من الثقافة الفرنسية والثقافة الجزائرية العربية.

مؤسس الرواية

والحقيقة أن أغلب النقاد يجمعون على أنه كان من أوائل المؤسسين للرواية العربية في الجزائر، مكنته من أن يحتل مكانة مرموقة بين روائيي الجزائر العرب، حيث كان الصدق في الكتابة بالنسبة إليه هدفه الأسمى. إذ يقول عن كتاباته: «حاولت في ما كتبته على تواضعه، أن أعالج نقاط التأزم الرئيسية في الوضع الجزائري بصفة تدخل أكبر قدر من المستقبل في الحاضر، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والأشكال النابعة من مراكز خارجية، اعتقاداً مني بأن الانطلاق من المعطيات التاريخية المحلية لكل قطر عربي، لو روعيت في أعمالنا الأدبية لأرجعت لنا شيئاً من الكرامة، وجنبتنا كثيراً من مزالق الاستلاب، فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الألف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادي والسياسي، أن هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل أعمالي الأدبية أعمل على معالجة الواقع المتأزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية مبتعداً بقدر الإمكان عن الاغتباط بما حققناه من إيجابيات».

المرأة في كتاباته

لم يكن يكتب كي يرضي أو بدافع أن يستجيب لرغبات سياسية متفاوتة في التفاؤل، بقدر ما كتب عن الأوضاع الجزائرية سابحا في أعمق أعماقها. فبالإضافة إلى كونه أحد المؤسسين للرواية العربية في الجزائر، نراه يعالج موضوع المرأة دون لف أو دوران، حيث كتب عنها وعن جسدها وآهاتها في روايته «ريح الجنوب» التي أدخل فيها المرأة كإنسان له دوره الكامل كجسد وعقل وأحاسيس ومشاعر.إذ تقول الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي في هذا الجانب: «هي أول عمل إبداعي أدخل فيه المرأة ـ لها جسد وشهوات إنسانية، وأنها عضو فاعل في المجتمع الجزائري» أما جان بول ايفري الناقد الفرنسي يقول عن ابن هدوقة «أنه جزائري حتى النخاع، لأنه عكس هموم الطبقات والشرائح الاجتماعية وطموحاتها عبر أعماله الأدبية، شعراً وروايةً ووضع المرأة في المقام الأول، ذلك أنها أهم مدرسة، فالمرأة احتلت المكانة التي يجب أن تحتلها لا غير في أعماله المختلفة.

إجمالا تعد المرأة والأرض والمستقبل وكل قضايا الحياة مركز اهتمام بن هدوقة، ولكن بأي لغة؟ حيث لا حياة دون

لغة، يقول عنه الناقد الفرنسي جلبير غراند غيوم: «أكد في أعماله على تعلم اللغة العربية بحذر وبطريقة جد حكيمة.

بين التعريب والتغريب

إن الاستعمار ورواسبه أرغم المواطن الجزائري في نظر ابن هدوقة على أن يعيد النظر في لغته بكل حيثياتها الثقافية والسياسية، لكنه يدرك أن معركة جديدة تفرض نفسها عليه، معركة تسعى إلى إبراز لغة عربية حديثة تلامس الحياة اليومية وتعرف كيف تتحدث عن المستقبل، بحيث لا تكون حاجزاً أمام الآخر ولا تقف حجر عثرة أمامه. لهذا لا يرى بن هدوقة أن مشروع التعريب في الجزائر قد أخذ سبيله بالنسبة للجو الثقافي الفعلي بل يعطيه طابعاً سلبياً لأنه لم يكن سوى تعريب سياسي في نظره. ذلك أنه ليس من السهل أن يخرج المواطن من براثن الاستعمار ومخلفاته كي يدخل في معركة التعريب دون الإلمام بكل جوانبها السياسية والثقافية. ومن ثم كان يرى بأن اللغة العربية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار حياة اليوم والغد حتى لا تصبح حاجزاً آخر أو أمام الآخر مهما كانت الظروف والملابسات.

لكن التعريب الذي حصل وكان يتابعه عن كثب، كان يراه تعريبا سياسيا أكثر منه ثقافيا، خاصة أنه تم دون أية مراعاة للمعطيات الثقافية الحقيقية ودون تهيئة الجو المناسب له فعلاً، بالإضافة إلى غيابه كقضية في أيدي أناس مدركين لجميع تفاصيل مشكلته وقادرين على تهيئة الأجواء المناسبة كي يتم عملية التعريب «بتؤدة».

وهكذا قد أسيء إلى كاتبي اللغة العربية، مما خلق شرخاً وأعطي سلاحاً لأعدائها كي يصفوها بالتخلف وعدم استيعاب التقدم التكنولوجي والصناعي. إذ كانت آراء بن هدوقة في هذا الموضوع جلية، لكنه لم يكن متعصباً مثل بعض أقرانه فهو «يعتبر أن لغة الكاتب هي وطنه». إلا أن الظروف التي تعرضت لها الجزائر غيّرت مجرى هذا المفهوم، والأدب عنده لا يتميز باللغة ـ في هذه الحالة ـ بل يتميز بالهموم التي يعالجها».

ومن ثم إن الجزائر في حاجة إلى كتابها باللغتين العربية والفرنسية، نظرا لكون هاتين اللغتين لغتين صنعتا الأدب والثقافة الجزائريين، بحيث لم نكن نعتبر اللغة حاجزاً في أيام الاستعمار، ما دام الهدف الأسمى كان التخلص من

الاستعمار. ذلك أن «الكتابة قيمة إنسانية يحملها الأدب الذي هو عمل خاص وبناء لحياة الأمة».. ولابن هدوقة موقف واضح من المثقف الجزائري الذي كان دائماً يفكر من داخل السلطة الجزائرية، «وهي لم تكن تقيم له أي وزن لأنها ليست مثقفة، ولأنها لا تقرأ والقاعدة القارئة لم تكن تشكل لها في جزائر السبعينات (قضية التعريب)، أي وزن، «فهم الحكام كان ولا زال السلطة والمسؤولية، والسلطة كانت دائماً أجنبية عن الثقافة. فالمثقفون في نظر بن هدوقة، لم يلموا شملهم، بينما لم يقم اتحاد الكتاب الجزائريين بواجبه نظرا لهيمنة السلطة عليه، إذ كان يضم هذا الاتحاد شلة صغيرة في خدمتها بشكل أو بآخر.

ومما يذكر خلقت السلطة الجزائرية مجموعات ثقافية غير متجانسة، مما صعب عملية توحيد الكتاب الجزائريين في ظل هذا الواقع الأليم. ذلك أن هذا التشتت الذي عاشوه وعايشوه كان في صالح السلطة بعد أن كرسته بما يخدم مصالحها فقط.

أما اللغتان المتداولتان في البلد رغم مرور أكثر من 30 سنة على الاستقلال، يرى بأنهما كانتا لغتي تناحر وتباعد، ولم

تكونا لغتي تقارب وتبادل وتحاور». الأمر الذي يجعل منها إحدى الإشكاليات العويصة التي زادت واقع الجزائر بؤساً وهمّاً: «أنا أشجع اللغتين ولا أعني بذلك تفضيل الكاتب باللغة الفرنسية على الكاتب باللغة العربية، لكن ما أشجعه هو التبادل والتفاهم والتحاور العقلاني المنطلق من الواقع الجزائري ومن قراءة متأنية لتاريخه وحاضره ومستقبله.

يبقى أن الأهم بالنسبة إلى «عبد الحميد بن هدوقة» أن تخدم اللغة الجزائر وشعبه، وأن تجعل منه في الصدارة الثقافية، بالإضافة إلى كونه بلداً معنيا بقضايا التحرر وأحد رموزه، حيث أعطى بذلك أمثلة كثيرة وبطريقة أو بأخرى يريد بن هدوقة من المثقفين أن يكونوا وطنيين يخدمون مصلحة شعبهم، غير أنه يعرف بأن هذا النداء ما هو إلا أمنية من الأماني، لأن الواقع الجزائري متشابك تجثم عليه سلطة أمنية قوية تقف في وجه الثقافة. بل ربما يساعد بعضهم هذا الوضع لأنه لو لم يكن موجودا لما أوجدوه هم أنفسهم على رأس بلد المليون ونصف المليون شهيد.

رجل حوار

كان عبد الحميد متتبعاً ومحللاً، له وجهات نظر حرة تؤمن بالنقاش والإيمان والقيم الحضارية للشعوب وبخاصة أن الجزائر خاضت تجربة كبرى وناضلت من أجل التحرير وانتزعت الاستقلال والحرية، حيث «تم حصولنا على هويتنا: جواز سفرنا، وطننا، لقد أصبحنا رجالاً ونساء، وفكرنا أننا سننسى بلدنا ونساعد الآخرين في تحرير بلدانهم ـ لكننا لم نفكر أن التخلف الثقافي سيفرض نفسه ويصبح عائقاً كبيراً». إذ بعد الاستقلال قبل بعضنا بالانقلاب السياسي، ومن هنا قبلنا أن نكون مسيّرين...؟! أي أن الحلم الذي حققه الجزائريون تبدد ولم يدم طويلاً، وإذا بالأبوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية توجه الشعب الجزائري وتفكر له وبدلا عنه (!). وبالتالي ضيع المواطن الجزائري حريته وأمله وربما حتى مستقبله، لأن الجزائر في نظر بن هدوقة أصبحت بلد الماضي، وليست بلد حلم، بل «بلد الكوابيس وليست بلد الهدوء، إنها بلد التمزيق....».

والحقيقة أن الكاتب هو قبل كل شيء، مواطن يعيش أوضاعه وأوضاع الآخرين، أما الذي يميزه عن الآخرين هو

صفة ال«ملاحظ و[ال]محلل و[ال]متنبئ»، وبالتالي يكتب ما يعايشه ويراه بشكل أو بآخر حتى يكون مرآة للواقع.

هكذا تطورت الأوضاع حتى «أصبح الجزائري يعايش ويتعايش مع الموت، وأصبح السديم يطلق عنانه في المكان والمدينة وفي أرجاء الوطن، فأصبح الإنسان يخاف من أخيه ومن صديقه ومن جاره وأصبح الشيء الذي يخاف منه المثقف، وغيره، هو الموت أو انتظار الموت». إنه موت قبل الأوان وقبل الوقت، لكن لماذا وصلت الجزائر إلى هذا اللانظام؟ يقول بن هدوقة: «ومن جاء بهذا الإسلام المحنط الذي قتل فكرياً وجسدياً الآخر لكونه لا يفكر مثله وليس من مدرسته الدينية»، فأي دين هذا الذي يتكلم به القاتل؟ وهل أمر الدين بالقتل؟

كلا، إن لهذا الواقع السياسي دوراً أساسياً لأنه هو الذي أوصلنا إلى هذه النتيجة، السياسي بكل أنواعه، المعارض والحاكم» بحيث فبرك هذا الجحيم الذي تعيشه الجزائر. منه أننا «لسنا بشراً إن كنا غير أحرار»، وعلينا أن «ندافع عن حرية الإنسان أين وجدنا، حتى في المنفى الذي لا يجب أن يتركنا ننسى أوضاع بلداننا».

ذلك أن المثقف يجب أن يكون نزيهاً في تحليله لهذا الواقع وأن «يتحلى بالأخلاق والصدق»، كي لا يكون مجرّد مكبر صوت يعكس ما تمليه عليه السلطة خصوصاً في الظروف الراهنة.

الجميع مسئولون

لا غلوّ في موقف بن هدوقة من الواقع في تحليله للإشكالية الجزائرية، فهو يلقي المسؤولية على كل الناس وبالأخص على السلطة! وعلى المثقف والمعارضة.

لماذا وصلنا إلى هذا الدمار الثقافي والاجتماعي؟ وكيف وصلنا إلى هذه النتيجة السيئة؟ إذ «لا يوجد أي شعب يستحق العذاب والنكبات، والجزائر لا تستحق هذا الجبروت الديني أو أولئك الطغاة» إنها لمأساة عايشها بن هدوقة وحللها بصدق، وكانت صيحاته من قلب إنسان يتألم من وضعه الشخصي كإنسان حلم بغد أفضل.

ولقد أصيب كاتبنا بمرض عضال، أسكته عن الحياة يوم 12 تشرين أول ـ أكتوبر ـ 1996، حيث اعترى بدنه بسرطان خبيث، كيف المخرج؟ وهل «هذا هو أفق الصبا

والشباب؟ لا، إنه قدر محتوم ومظلم ومملوء بالأحزان والأتعاب» يختلط فيه العنف بالأمل. لكن الواقع الأليم يفرض نفسه «والمجزرة مستمرة ولا أحد يعرف من يقتل الآخر؟ سوى أن المتهم إسلامي (!) جاء بدين محنط مستورد يفتي بالموت والتهديد.

حضور التراث

استوحى بن هدوقة أموراً كثيرة من التراث وضمنها بشكل حديث في أعماله الأدبية، كما أنه تصدى بكل شجاعة للظروف التي مرت بها الجزائر، فأعماله الروائية سلسلة من الصيحات ضد العادات والتقاليد البالية، تدفع في اتجاه تحقيق حداثة راقية لا تتجاهل ماضيا هو جزء من فكرنا وحياتنا. لكن في نفس الوقت لا يجب أن يكون هذا الماضي مطرقة مسلطة على مستقبلنا، كما لا يحق للكاتب أن يسقط نماذج على الجزائر من باريس أو لندن، بل عليه أن يستنبطها من الواقع الجزائري اليومي.

علاوة أنه أدان التطرف والتعصب والإرهاب بكل أنواعه، وسجل في عمله الروائي «غداً يوم جديد»، حيث

كانت بمثابة شهادة تكلم فيها عن ثورة الأطفال «الذين ولدوا على دون رغبة آبائهم، وليس بالإمكان أن يسكتوا إلى الأبد عن الأكواخ القصديرية التي بنتها لهم قصور الاستقلال».

مؤدى هذه الكتابة الروائية أن تخاطب اللغة تلك الذاكرة التي غيبت في الجزائر، والبطلة العجوزة مسعودة «أرادت أن تتكلم بعد صمت طويل وذلك منذ بداية انتفاضة تشرين أول ـ أكتوبر ـ 1988 لتقوم بنقد ذاتي مقارنة أحداث ماضي البلد بمستقبلها المجهول السائر نحو المجهول وذلك بالحديث عن تجربتها الخاصة كجزائرية عايشت مسيرة البلاد.

يقول الروائي في حوار بين السارد والبطلة ما يلي:

«لو سألتني من تحب؟

أقول لها: حلماً

أضاع أحلامه!

لو سألتني: ما الزمن؟

أقول لها: شريط فارغ، قبل قصتك؟

لو سألتني: كيف كانت اليقظة؟

أقول لها: مرّة!

لو سألتني: كيف كانت قصتي؟

أقول لها: الطريق الذي أوصلني من الدشرة (القرية) إلى المدينة صار أدغالاً

يعمرها قطاع الأحلام.

لو سألتني: أين تحيا؟

أقول لها: في المدينة والرأس ما زال قروياً. والقرية اندثرت!

لو سألتني: وما جنته المدينة عليك ؟

أقول لها: اعتدت على شرف طفولتي كما اعتدت على شرف شبابك القروي!

أصبحت شيباً ـ واعذريني ـ أروق لممارسة الفاحشة عن براءة وطهر روحي

وأصبحت أنا سوقاً سوداء

أبيع الكلمات...

من يشتري الكلمات! من يشتري الكلمات» (ص561 ـ 661 من الرواية) .

آمال وخيبات

إن مسيرة عبد الحميد مليئة بالآمال والخيبات وهي تعكس مسيرة الجزائري الذي عايش الحلم والتغيير ثم رأى كل شيء يتبدد رويداً رويداً، وعبر عن ذلك في أعماله المتنوعة حتى قال عنها النقاد: «إنها اجتماعية، وواقعية صافية، وفيها شيء من الرومانسية، والوجودية، وإنها لا تخلو من الشاعرية والرمزية، وهناك من جعل الروائي واقعياً نقدياً يتسم بوضوح الرؤية تارة وقصورها تارة أخرى».

صدرت لعبد الحميد بن هدوقة الأعمال الآتية:

1 ـ الجزائر بين الأمس واليوم، دراسة نشرت تحمل اسم وزارة الأخبار للحكومة الجزائرية المؤقتة سنة 1959.

2 ـ ظلال جزائرية (مجموعة قصص) نشرت في بيروت عن دار الحياة سنة 1996.

3 ـ الأشعة السبعة (مجموعة قصص) صدرت في تونس عن الشركة القومية للتوزيع والنشر سنة 1962.

4 ـ الأرواح الشاغرة (ديوان شعر) صدر في الجزائر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة .1967.

-5 ذكريات وجراح.- الجزائر: دار هومة. 1997.

6 ـ ريح الجنوب (رواية) صدرت في الجزائر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1971.

7 ـ الكاتب وقصص أخرى (مجموعة قصص) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1974.

8 ـ نهاية الأمس (رواية) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1975.

9 ـ بان الصبح (رواية) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1980.

10 ـ الجازية والدراويش (رواية) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1983

11 ـ قصص من الأدب العالمي (مجموعة قصص ترجمها الكاتب واختارها من الأدب العالمي، صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1983.

12 ـ النسر والعقاب (قصة للأطفال بالألوان) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1958.

13 ـ قصة في ايركوتسك (مسرحية سوفيتية مترجمة) صدرت في الجزائر عن الشركة نفسها سنة 1968.

14 ـ دفاع عن الفدائيين (دراسة مترجمة عن عمل قام به المحامي قيرجيس) نشرت في بيروت سنة 1975 وسلمت هذه الدراسة إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

15 ـ غداً يوم جديد (رواية) صدرت في الجزائر سنة 1992 في بيروت عن دار الآداب سنة 1997.

16 ـ أمثال جزائرية، صدر في الجزائر، عن الجمعية الجزائرية للطفولة سنة 1993، يخاطب فيها الجيل الجديد الذي يبحث عن تاريخه وهويته الثقافية الشعبية الحية والغنية في تراثه. «أود أن أعترف من خلال عملي هذا بالتقاطع والتشابك والتداخل الثقافي بين مختلف الجهات الجزائرية وبين الأدب الشعبي والأدب العربي».

شارك بن هدوقة في الندوات الثقافية والفكرية بهدف التعريف بالأدب الجزائري بكل أشكاله، كما ترجمت أعماله إلى لغات عدة مثل روايته «ريح الجنوب» ترجمت إلى الفرنسية، الألمانية، الهولندية، الأسبانية، البولونية، السلوفاكية، الروسية، الصينية، الصربية، والتشيكية، أما روايته «نهاية الأمس» فترجمت إلى الفرنسية والهولندية والصربية ـ كما ترجمت روايته «بان الصبح» إلى الفرنسية والألمانية والروسية والإسبانية... الخ.

ومما يذكر له أنه ترك مائتي تمثيلية ومسرحية إذاعية لم تنشر، وله أيضا مجموعة من الدراسات الثقافية ومجموعة

من القصص والقصائد الحرة الجديدة التي لم تنشر بعد.. مما يجعل السؤال منطقيا، هل سينشر منها شيء ذات يوم!؟.

هكذا كتب عبد الحميد بن هدوقة في الشعر والقصة والرواية والدراسات الأدبية وترجم أعمالاً مختلفة إلى اللغة العربية، مما يجعل من جهوده مساهمات ذات دلالة كبرى تعبر عن اهتمامات الكاتب المتنوعة، كما أن النقاد يجمعون على أن روايته «ريح الجنوب» «تعد بمثابة الميلاد الحقيقي في فن الرواية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية، بعد عدة محاولات سبقته في نهاية الأربعينات مع الشهيد أحمد رضا حوحو. بيد يظل صاحب المكانة المرموقة في فن القصة القصيرة والمسرحية مع محاولة محتشمة في الرواية، هذا على الرغم من محاولات رضا حوحو وغيره، لم تظهر الرواية بمقاييسها ومواصفاتها الحديثة إلا مع صدور أعمال بن هدوقة والطاهر وطار في نهاية الستينات»، بحيث لا يستطيع أحد أن يتكلم عن الرواية العربية الجزائرية ويتجاهل هذين الاسمين.

فالذاكرة الجماعية والهموم التي عايشتها كانت موضوعات تتطرق لها الأعمال الأدبية والروائية الجزائرية،

إذ انتقلت غنائيات هذه الأعمال إلى تمجيد الإنسان الشعبي، بطل العصر الجديد، وكانت تهدف إلى تخليد البطولة الشعبية التي هي «تخليد لإنسانية الإنسان...». ومن ثم يظل بن هدوقة وجهاً من وجوه الرواية الجزائرية المميزة حيث أرسى لها القوالب الفنية وكل المقومات الضرورية التي تمكنه من معالجة مأساة وآمال شعبه.

بعض المراجع المعتمدة في هذا البحث

1 - توظيف التراث الشعبي في روايات عبد الحميد بن هدوقة، للأستاذ عبد الحميد بوسماحة، الجزائر: (د.ن)، رسالة ماجستير قدمت لجامعة الجزائر سنة 1982.

2 - صورة المرأة في روايات عبد الحميد بن هدوقة، للأستاذة فهيمة الطويل .- (د.م)، (د.ن)، 1986.

3 - عبد الحميد بن هدوقة: أعمال وبحوث الملتقى الثالث: 27 سبتمبر 2000/ نظمته مديرية الثقافة لولاية برج بوعريريج، بالاشتراك مع عبد الحميد بورايو، السعيد بوطاجين، عبد العالي بشير، ... (وآخرون)، أشرفت عليه وزارة الاتصال والثقافة.- الجزائر: دار هومة، 2000

4 - قراءات ودراسات نقدية في أدب عبد الحميد بن هدوقة .- الجزائر: وزارة الثقافة والاتصال، 1998

حوارات

الكاتب الجزائري رابح بلعمري
أحد المرشحين لجائزة «غونكور»
سنة 1987

الكاتب الجزائري رابح بلعمري
أحد المرشحين لجائزة «غونكور»
سنة 1987

ولد الكاتب الجزائري (المرحوم) رابح بلعمري في «بوقاعة» بالقرب من مدينة سطيف، بالشرق الجزائري، سنة 1946، فقد بصره سنة 1962، أي مع استقلال الجزائر، الذي كان ينتظره بفرح ككل أقرانه، غير أن القدر أراد غير ذلك، ويالها من مفارقة عجيبة إذ أنه كان قد أصيب في عينيه وهو طفل ليفقد بعد ذلك بصره وهو شاب .

تابع دراسته الابتدائية والثانوية «ببوقاعة» و«سطيف» ثم الجزائر العاصمة، وبعد ذلك انتقل إلى جامعة السربون بباريس حيث حصل على الدكتوراه من الدرجة الثالثة

كانت تحت عنوان: «لويس بيرتران: مرآة الأيديولوجية الاستعمارية» والتي صدرت في كتاب سنة 1980 بالجزائر عن ديوان المطبوعات الجزائرية باللغة الفرنسية.

كتب بلعمري في شتى صنوف الأدب: الرواية، الشعر، القصة، الحكاية، الدراسة الأدبية، كما كان يعد دكتوراه دولة عن الكاتب الجزائري جان سيناك الذي مات في ظروف غامضة في سبعينيات القرن الماضي في الجزائر، لكن القدر أراد غير ذلك مرة أخرى، إذ وافته المنية يوم 13 أكتوبر 1995.

هذا اللقاء التالي كنت قد أجريته معه لدى صدور ترجمة لروايته «الشمس تحت الغربال» باللغة العربية. حيث روى لنا سيرة حياته منذ طفولته وحتى مسيرته مع الكتابة. وبادرته بالسؤال:

- هل لك أن تكلمنا عن مسيرتك مع الكتابة؟

• بدأت كتابة الحكاية التي أتكلم فيها عن طفولتي، وفي نفس الوقت الدراسات الأدبية، لم أتوقف عن الكتابة، خاصة منذ سنة 1977، كتبت بسعادة وابتهاج كبيرين،

وكلما تعمقت، كلما أحببت الكتابة أكثر فأكثر، كما كتبت الرواية والقصة القصيرة والشعر الذين فضلتهم عن كتابة الأطروحات، إذ أن الكتابة في هذين النوعين لا تتطلب نفس المقاييس.

- هناك نقاش حول الكتاب العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية، فما هي وجهة نظرك في هذه القضية ؟

• أعتقد بأن هذه مشاكل مختلقة، و ما يهمنا نحن الكتاب، وخاصة المغاربة الذين أخذوا من هذه اللغة إرثها الثقافي المعروف، وفي الظروف الموضوعية التي عشناها، فإن ما يهمنا هو أن نكتب، لأن هناك طلب ملح للكتابة، وهناك إلحاح شديد للتغيير والقول، يجب أن نعبر عن هواجسنا ومشاكلنا، لذلك فسواء كتبنا باللغة الفرنسية أو غيرها، فإن هذا لا يهم، ولأن في الغرب هناك أناسا يقرؤون لنا، فمعنى ذلك أن هنالك جمهور لنا، وفي رأيي، المهم هو أن نكتب، وأن لا نصمت، وأن نتكلم ..وكما تعرف فإن الناشرين لهذه الكتابات لو كانوا يعرفون بأن ما ينشرونه غير مرغوب فيه، وليس مربحا ماديا ما كانوا لينشرونه ، لأنهم ليسوا أناسا ينشرون للنشر فحسب، بل لأنهم أيضا تجار ويعرفون جيدا قيمة هذا الأدب ومؤلفيه ومدى انتشاره.

- تعترف معي بأن هذه الأسئلة مطروحة بإلحاح، أي أن كل ما هو مكتوب باللغة الفرنسية لا يعتبر أدبا عربيا كما يرى البعض؟

• أنا أكتب باللغة الفرنسية، لكنها ليست لغة أجنبية بالنسبة للمغرب العربي، يجب أن لا ننسى بأنها لغة متجذرة في الحياة المغاربية، كما قال «اللعبي» الشاعر والكاتب المغربي المعروف، وأنا معه في وجهة نظره هذه، أنها تشارك (أي اللغة الفرنسية) في انتشار الأدب المغربي، وتشارك من الداخل في تطوير الثقافة المغاربية.

أقول بأن اللغة الفرنسية تساهم أكثر من اللغة العربية في إخراج الثقافة المغاربية من عزلتها وذاتيتها، وتسمح لنا بالتفاعل مع إشكالية تطور العصر والقيم العالمية، وهنا آخذ كلام اللعبي، وأنا جد متفق معه، هذا الكلام قاله في كتابه «الربوة العربية «La Colline arabe» الصادر في باريس عن منشورات هارماتان.

- كتبت في مجالات إبداعية مختلفة، ففي أي إطار أدبي تجد نفسك أو إلى أي نوع تميل أكثر؟

• كما قلت في البداية، كتبت في موضوعات متعددة، كما قال لي الصحفي الفرنسي «بيير أنسال ليغوز» في مقالة له بجريدة «لوموند» أن وظيفتي وهوايتي هي الكتابة» ولا أميل لنوع محدد، فأنا أمارس الكتابة بمختلف أشكالها الأدبية، دون مراعاة أو تحبيذ لشكل ما على آخر، أهتم بالأدب المحلي، لأن هذا الأدب يحمل طفولتي، وتشبعت بالحكايات الشعبية، ولذلك أهتم بها كثيرا، كما أهتم بالرواية..وبكتابة الشعر...الخ، أنا -كما قلت لك- لا أفضل نوعا أدبيا على آخر، لأن هذه الأنواع تتكامل وتراني أمر في الكتابة من نوع إلى آخر، كما لا أهمل الدراسات الأدبية التي بدورها تمس الحياة، الواقع، الخيال وهكذا..أنا اكتب بالمعنى العام للكلمة، أي ذلك الذي يمر من شكل إلى آخر، وكتبت بالعربية الدارجة سيناريو ومسرحيات.

- هل تنوي نشر ما كتبته باللغة العربية؟

• كتبت مسرحيات تجاوزها الزمن، لو تحقق لي ونشرتها منذ زمن، ربما كانت ستمثل شيئا ما، حيث تكلمت فيها عن الواقع الجزائري، والصعوبات التي عرفها في الميدان الثقافي والفكري..وكان محورها الفكاهة والسخرية من

الأزمات الغذائية وغيرها التي عرفتها الجزائر، كما تكلمت عن تمسك طبقة معينة بماضي الثورة والجهاد..الخ.

- لنعد إلى روايتك «شمس تحت الغربال» والتي نجد فيها صراحة لا حدود لها، وعندما نقرأ روايتك «النظر الجريح» نجدها وكأنها مكملة لها، فهل تنوي كتابة ثلاثية رابح بل...

• لا أريد كتابة ثلاثية، لأن الرواية الجديدة التي صدرت عن دار «غاليمارد» وهي بعنوان «منفى الحجر» ليست لها أي علاقة مع الروايتين الآخرتين، ومع ترجمة حياتي في الشمس تحت الغربال، التي هي قصة طفولتي و«النظر الجريح» رواية أتكلم فيها عن حياتي وتجاربي، ومعروف أن الرواية تتطلب بنى وشخصيات، وفي النظر الجريح نجد هذه المعطيات، أما الشمس تحت الغربال فهي غير ذلك لأنها حكاية طفولتي، لأننا نرى فيها طفلا يعيش حياته اليومية، في علاقته مع أسرته، ومع رفاقه وهم يلعبون في الشارع، وفي الجامع، أي المدرسة القرآنية، ثم الذهاب إلى المدرسة الفرنسية، نرى كل ذلك بواسطة عينا طفل صغير يترعرع رويدا رويدا، ويكتشف كل أماكن القرية،السوق،

الطرق، شخصية الكاتب العمومي، شخصية المجنون... وهكذا، إنها حقيقة وهي نظرة إلى المجتمع الجزائري من الداخل من خلال نظرة طفل صغير.

- نلاحظ أن كل فصول روايتك لا تخلو من ذكر الجن والعفاريت والأسياد : سيدي الجودي، أولياء الله الصالحين؟

• نعم، إنني في هذه الرواية أتكلم عن هذه الأشياء، لأن هناك تربية، تربية عاطفية أخلاقية، حسية لطفل صغير، طفل عاش حياته في تلك القرية، ما بين سنة 1946 وسنة 1960 على أكثر تقدير، وحقيقة إن طفولتنا كانت عجين من الخرافات، الجن يأتي في أي وقت، وتشرح معظم الأشياء بواسطة العفاريت، أو بإرادة الله، أي أننا نعيش فعلا في عالم غارق في الخرافات، وهذا يترك أثره فينا نحن كمغاربة، وفي رؤيتنا للعالم، هذه الأمور لا تنمح من الذاكرة بسهولة، وقد تربينا على اعتقادات عشناها منذ نعومة أظافرنا، بكل معطياتها الضبابية والمخيفة، وهي ليست مبادئ تعطينا وعيا وإدراكا للحياة، وينبغي أن نبذل مجهودات كبيرة حتى نتجاوز قليلا هذه الرؤى ولو قليلا، يجب أن نبني أنفسنا، ونبني إنسانا

أكثر وضوحا ونقاء، فالتربية التي تعلمناها كانت خليطا من الأوهام والخرافات، وليست صدفة أننا نحن كمغاربة لنا شخصيات قلقة، لذا يجب أن نبذل جهدا ثقافيا خلاقا لكي نتخلص من هذا الإرث القديم، أسميها تراثا (رثا) لأنها هي الكلمة التي تنطبق فعلا على هذا الخليط من التربية، لذا علينا أن نوضح نظرتنا للأمور والواقع للعيش ونبحث عن العيش في طمأنينة.

- لاحظت في عملك غياب الأحداث العالمية، والعربية مثلا القضية الفلسطينية لا أحد تطرق إليها من شخصيات في روايتك الشمس تحت الغربال؟

• أعتقد أنه ينبغي أن نلاحظ بأن قريتنا كان فيها وجود كبير لحزب الشعب الجزائري، وأن المنطقة، أي شرق الجزائر، قد دفعت الكثير في أحداث مايو 1945 التي استشهد فيها خمسة وأربعون ألف جزائري ، داهمتهم قوات الاحتلال بصورة وحشية..ومن المفروض أن يكون أهلها مسيسون، لكن صدقني بأنني لم أسمع عن القضية الفلسطينية في ذلك الوقت، لم نكن مهتمين بها ونحن صغارا، أو بالأحرى كانت الظروف التي تعيشها الجزائر صعبة جدا،

وربما هي التي طغت على باقي الأحداث، وبالتالي كنا في قلب التطورات التي شهدتها الجزائر لاحقا، والناس الذين كانوا يمتلكون إمكانيات إعلامية، كالمذياع، كانوا قليلين جدا، ربما كانوا على علم واطلاع بهذه القضية، أما المشاكل العالمية فتجاوزتنا، بينما تحدثت عن حرب التحرير الجزائرية، لست أدري هل هناك أناسا يعرفون هذه القضية أم لا؟ أعني القضية الفلسطينية، التي عرفناها فيما بعد بشكل جيد مع بداية الاستقلال، وكانت مثل هذه المشاكل بعيدة عنا في ذلك الوقت.

- قلت بأن هناك أناسا كانوا يذهبون إلى فرنسا، مهاجرين، ألم يحدثونك عن هذه القضايا؟

• سمعنا بالحرب الألمانية، وكنا نسمع خليطا عجيبا ومضحكا في هذا المجال، بحيث كان يقال لنا بأن «الإمام علي» حارب الألمان، ألا تندهش من هذه الخرافات؟ وكيف لا يكون وعينا مجردا من الموضوعية؟ طبعا، هناك سحر وجمال في هذه القصص التي يختلط فيها كل شيء .

- القارئ لروايتك يتوقع منذ بداية الفصل الأول، بأنك ستتناول أحداث مايو 1945 الدامية، أو حرب

التحرير الجزائرية، أو عن مشاركة أهل القرية في الأحداث، لكن هناك إشارات فقط بدون التركيز على هذه الأحداث كيف تفسر ذلك؟

• «الشمس تحت الغربال» هي تعرية للواقع فعلا، أردت أن أرصد حركة المجتمع من خلال وجهة نظر اجتماعية وأخلاقية، لأنني تكلمت عن المستعمر، وعن الفرنسيين، إلا أن الحرب لم تكن موضوع روايتي، تكلمت عنها في النظر الجريح، كما أتكلم بشكل أوسع في روايتي الجديدة، «مأوى الحجر»، حيث أكشف عن أحداث 1945 المأساوية، إذن كل شيء يأتي في وقته، وعالجت في الشمس تحت الغربال المجتمع من الداخل، وتطرقت إلى التربية التي تربيناها والممارسات التي ساهمت في بناء شخصيتنا.

– العامل المهاجر في روايتك هو مكسب ثروة وآمان لأسرته، لكن شقيقك لم يسلك هذا الطريق، فهل كان فعلا هذا هو دور العامل المهاجر الأساسي؟

• بصفة عامة، كان، وما يزال، العامل المهاجر يغترب من أجل ضمان حياة أفضل لأسرته، وكان ضمانا فعلا، وأتكلم عن أخي الذي لم يتبع نفس الطريق لأنه كان شابا

وكان عمره آنذاك سبعة عشر سنة، وكان متعلما، فأراد أن يعيش، ولم يكن ذلك المهاجر الذي يفكر في أهله وفي والده الفقير، لم يكن يبعث المال إلى الأسرة إلا نادرا، وعرفت العمال المهاجرين عن قرب، لأن والدي كان تاجرا، وكان دكانه بمثابة مكتب البريد، تأتي إليه الرسائل، وكنت أقرأ لهؤلاء الفلاحين، الذين كانوا يراسلون أهلهم ، وعرفت جيدا مشاكل الهجرة، وفعلا فإن وجود العمال الجزائريين في فرنسا قد ساعد إلى حد كبير أهلهم ماديا، كما أسقط بعض المهاجرين في متاهات مختلفة من ناحية، ومن ناحية أخرى أكسبت الهجرة بعضهم المسؤولية وهم صغار في السن.

- هل نستطيع أن نقول بأن الرواية تؤرخ للمرحلة التي تعالجها، لأننا حين نقرأ روايتك «الشمس تحت الغربال»، نتعرف جيدا على «برقاعة» وضواحيها؟

• هناك رواية تاريخية، ورواية خيالية..وبالنسبة لروايتي الشمس تحت الغربال، أعتبرها وثيقة، فيها بعد سلالي (أنتروبولوجي)، تاريخي، وهي في تقديري مثل رواية مولود فرعون «ابن الفقير» فهي تعتبر وثيقة كذلك. هذه وجهة نظري، لأن الكتابة تغير الواقع، والكتابة هنا

هي وجهة نظر، وربما ليست وجهة النظر الحقيقية، بل هي تحليل، وبهذا أكون أقل موضوعية من المؤرخ، لأنني أطرح أو أعالج مشاكل ذاتية، ولذا أنا أقل من العالم السلالي أو من المؤرخ الذي يدرس المعطيات بحيادية وموضوعية، أنا أغوص في صميم الحياة، ولهذا تكون نظرتي غير محيطة بكل المعلومات، ويكون هناك نقص بدون شك، أعتقد أن الشمس تحت الغربال ليست وثيقة فحسب، بل هي رسم جدراني للحياة الاجتماعية، و ربما كان هذا ينطبق على جزء هام من الجزائر، خاصة جزائر الريف، وكثير من الناس الذين قرؤوا عملي ، وليسوا من قريتي، وجدوا فيها الكثير من الأشياء التي عاشوها بدورهم، لأننا إن كنا من سكان القرى سنجد أنفسنا بشكل أو بآخر في هذه الرواية، أما إن كنا من المدينة فهذا شيء آخر.

- هناك شيء مثير للانتباه في الرواية الجزائرية، أي جل الأحداث (أو أغلبها) تنطلق من البادية، والقليل من الروايات التي تنطلق أحداثها من المدينة، غير أن المكان الذي تجري فيه أحداث روايتك ليس بقرية وليس بمدينة، كيف تفسر ذلك؟

• فعلا، معك حق، أنا عشت في قرية هي مدينة في نفس الوقت، فعندما كنت طفلا لم أكن أعتبر نفسي قرويا، وبين المدينة التي أسكن فيها، والمكان الذي يسكن فيه أولاد خالي ثلاث كيلومترات أو أقل، ونلاحظ فرقا شاسعا، كنت ابن المدينة، لكن عندما كنت أذهب إلى سطيف كنت أعتبر نفسي فعلا قرويا، لأن أهل سطيف بالمقارنة معي هم سكان مدينة فعلا.

أنا لم أعمل هذا عن قصد، هناك ولدت، وهذه هي طريقة نعرف بها أنفسنا، وكيف نحن معمولين (إن صح التعبير)، إننا تركيبة من كل هذا، كما أننا تركيبة من الإسلام والحضارة الغربية، إذن، هنالك في تكويني جزء قروي، وجزء مدني، وجزء إسلامي، وعربي، وبربري وهكذا.

- هل صحيح أن اسمك كان موجودا ضمن قائمة مسابقة غونكورد لسنة 1987 ؟

• نعم، كان اسمي في القائمة الأولى، أي كان من ضمن العشرين عملا أدبيا من المرتبة الأولى، كانت بينهم روايتي «النظر الجريح» الذي أخذت بها جائزة إذاعة «فرانس كيلتور» فرنسا الثقافية في جوان 1987.

- ما رأيك في الحركة الثقافية العربية في باريس؟

• نظرا للظروف الاجتماعية والسياسية، خاصة في البلدان العربية، فهناك جيش من المثقفين العرب، اختار باريس، أو أوروبا، وفي باريس توجد فعلا حركة ثقافية، فنجد الكتاب المشارقة بجانب الكتاب المغاربة، الذين يعيش بعضهم في فرنسا منذ مدة طويلة، نظرا للظروف التي مرت بها بلدانهم، صحيح، كما قال لي أحد الصحفيين اللبنانيين أخيرا، بأن باريس أصبحت عاصمة الثقافة العربية.

هناك باحثون وطلاب كثيرون، والإبداع يتطلب جوا من الحرية والديمقراطية، ولا يبدع الكاتب ويقول ما يريد تحت حكم استبدادي، وأريد أن أقول بأن ما قام به الخميني بالنسبة لكتاب سلمان رشدي، آيات شيطانية، والذي أفتى بقتل صاحبه، شيء غير مقبول نهائيا، فهذا الكاتب حسب ما أعتقد لا يتطلب كل هذه الشراسة، والحكم بالإعدام، كما لا يتطلب إنزال فتوى. فالكاتب له الحق في التساؤل عن الأساطير والخرافات التي تشكل شخصيتنا.

يجب أن نحترم حرية الرأي، وأن نكافح ولا نترك هؤلاء الذين يريدون خنق الفكر، وهو شيء جد مؤسف،

وآمل أن ينهض المسلمون المتفتحون ويعملون شيئا ضد فتوى الخميني.

- كنا نتكلم عن الحركة الثقافية العربية في باريس، كيف تقيم جمعية المثقفين المغاربة التي رأت النور منذ أشهر؟

• بعد أحداث أكتوبر الأليمة، اجتمع بعض المثقفين المغاربة من البلدان الثلاثة: تونس الجزائر والمغرب، واتفقوا على تأسيس جمعية المثقفين المغاربة، أو المغاربيين، والهدف من وراء تأسيسها إضافة للدفاع والمشاركة في الحياة الثقافية اليومية، خلق أنشطة ثقافية، ومحاولة تقريب المثقفين من بعضهم البعض، وأخذ مبادرات ومواقف مما يجري هنا وهناك في الواقع المعيشي المغاربي اليومي، والدفاع عن الحريات الثقافية والسياسية، هذه هي أهداف الجمعية، التي نظمت مجموعة من اللقاءات وأصبحت فاعلة في الجو الثقافي الباريسي وهي في بدايتها، وأتمنى لها مواصلة عملها الذي يواجه الكثير من الصعوبات المادية .

(الجدير بالذكر أن هذه الجمعية قد توقفت عن أنشطتها بعد عدة أشهر من إجراء هذا الحوار بسبب ظروف سياسية ومادية).

لقاء مع الناقد المرحوم
علي بن عاشور

لقاء مع الناقد المرحوم علي بن عاشور

استهلال

حملناه في قلوبنا وتفرّقنا...

ترى هل توزّعناه إلى هذا الحدّ ؟ حتى لم يبقَ منه شيء؟

فجأةً تذكّرنا أننا بالغنا في التفرّق وأنه ينبغي لنا الاجتماع لنعيد إلى عليّ وحدته

علينا أن نعيده كاملاً ما أمكن، كما كان قبل أن نشتّته.

ماذا بقي من علي بن عاشور؟ وماذا كان قبل أن نتوزّعه؟

كان علي بن عاشور صموتاً كالقلم: يتبدّى معناه حين يكتب، نحيلاً كالقلم: تظهر قوته حين يعمل، رقيقاً شفافاً كأنه نسغة الحبر، بلون الدم.

كان علي بن عاشور صمتاً دائما؛ كان ساهماً هادئا إلا حين يقرّر فعل شيء، فينفذ؛ يفعله حقاً، بصمت وثقة، كأفضل ما يكون الفعل.

كان علي بن عاشور كتابةً فحسب؛ كان كتابةً معظمها بقي خارج الصحافة ودور النشر. كتب عليّ نفْسَه في أوراقه الخاصة؛ لم يدخل في دورة مياه التداول العام، فسَلم من النشر الرخيص، وصان نفسه من لوك ألسنة «النقاد».

جمع مقالاته التي رفضتها الصحف في كتاب لم يُنشر حتى الساعة؛ أ بسبب عنوانه «الكلمات نقدية» أم بسبب وجع كلماته الموجعة.

رسائله التي بعث إلى أصدقائه من مختلف الأماكن، من سجنه الصغير في باريس إلى سجنه الكبير في العالم العربي وفي العالم، حملت أطراف حقيقته الموزّعة هنا وهناك.

ولئن كنت آليت على نفسي العمل على نشر نصه النقدي، فبانتظار الوفاء بالوعد كاملاً؛ هنا أجمع نتفاً من فلذات قلم عليّ المنثورة التي استطعت جمعها:

1) البيان الذي كان وزّعه على بعض المثقفين العرب، يحدّد فيه رؤيته السياسية والفكرية ويردّ على ما كان يُشاع عنه، ما زلت أحتفظ به بين أوراق قديمة. ولا ننسَ أن هذا البيان كُتب قبل عشرين عاماً، ومع ذلك فلا يزال يحتفظ بنظرة قريبة جداً من الواقع الذي آلت إليه الأمور، ولم يتوقعها إلا قلّة قليلة جدا كان عليّ واحدا بينها.

2) الرسالة التي بعث بها إليَّ من سجنه تشبه رسائله التي بعث بها إلى أصدقاء آخرين. لكنها تنفرد بدفق هائل من الصراحة.

3) الحديث المسجّل الذي كان موضوع سهرة طويلة بيننا، جعلت منه موضوعاً لحوار صحافي لم يعرف طريقه إلى النشر مذ ذّاك، لكنّه ظلّ يحتلّ بين أوراقي مكانة مهمة.

ذلك أني كنت قد دأبتُ على مراسلة مجلة «آمال» - الصادرة في الجزائر- منذ أن طلب مني بعض الأصدقاء في

الجزائر أن أُسهم من خلال وجودي في باريس ومن خلال علاقتي بالأوساط الثقافية والصحافية العربية ، وأرسل إلى المجلة من وقت لآخر، مادة صحافية ثقافية، ومنذ أن لاقت مراسلاتي الأولى استحسان المشرفين عليها، طلبوا مني أن أبعث لهم حوارات مع كتّاب وأدباء مغاربة يعيشون في فرنسا لإطلاع القرّاء العرب على جوانب من إنتاجهم الفكري والأدبي، لا سيما حين لا يستطيع هؤلاء الكتّاب والأدباء المغمورون أن ينشروا في فرنسا ما يكتبون بالفرنسية أو بالعربية... فبعثت للمجلّة مقالات وحوارات متنوّعة أجريتها مع كتاب وأدباء مغاربة (عرب بعامة وجزائريين بخاصة) بعضهم كان مُقيما في فرنسا وبعضهم في زيارة عابرة لها...

إلى أن بعثتُ إلى المجلّة المذكورة حوارا أجريته مع عليّ بن عاشور، يتضمّن بطبيعة الحال، خصوصية مختلفة ناجمة عن اختلاف أمزجة الكتاب وهمومهم واختلاف الموضوعات التي يطرحونها ويتناولونها بالمعالجة والتحليل.

فحدث ما لم يكن بالحسبان وما لم يكن يتمنّاه أحد: لا أنا بالذات، ولا عليّ، ولا سوانا من القرّاء أو العاملين في المجلة

التي كنا جميعاً حريصين على دورها الطليعي. ورغم أن الحوار أعجب المشرفين على المجلّة، ونال الموافقة على النشر، إلا أن «أديبا» جزائريا «صادف» المقال وقرأه في المطبعة، فتدخّل لإيقاف صدوره في العدد الذي كان قيد الطباعة. كانت الحجّة التي تذرّع بها الأديب أن «الحوار ساخن، يكشف بعض الحقائق الملتهبة ويمكن أن يولّد حريقا» .هذا هو ما كان عليّ متخوفا منه، حين عرف أني بعثت الحوار إلى «آمال». كان يتوقّع أن تكون النتيجة حرمان القرّاء من مجلّتهم إن هي نشرت الحوار. لكنه لم يكن يتوقّع أبداً أن تُغلَقَ المجلّة حتى من غير أن تنشره وقبل أن تنشره.

بعد توقف مجلّة «آمال»، حاولت أن أنشر الحوار في أكثر من مجلة وصحيفة عربية، لكن عبثاً؛ لم يجرؤ أحد على نشره، باستثناء «بريد الجنوب» التي نشرت جزءاً منه.

4) ثمة صديق آخر أود أن أقرنه بهذه السيرة الموجزة، لا لأن روابط الصداقة التي جمعتنا نحن الثلاثة كانت قوية فحسب، بل لأن قوة المصير بالذات التي جمعتهما كانت أقوى مما أرغب أنا نفسي بفعله:

فمحمد بوشحيط الكاتب والصحافي الجزائري المولود في القلّ، بولاية سكيكدة بالشرق الجزائري، خرج من الجزائر بعد الاستقلال في بعثة دراسية، ووجد نفسه كعليّ بن عاشور، في قلب الحلم العربي، حيث تعرّف عليه في ليبيا، وتابعا دراستهما معا في سوريا، ثم التقيا من جديد في باريس... فناضلا معا من أجل قضايا تحرّر الشعوب العربية، وفي مقدّمتها الشعب الفلسطيني... فكان أن وجد نفسه مُبعَداً من عدّة دول عربية. فأقام في لبنان وكتب في صحفه ومجلاته، ثم في مدريد ففي بغداد، ثم ساعده بعض الرفاق على المجيء إلى باريس حيث أقام خمسة أشهر فقط قضاها في الكتابة، ثم ما لبث أن عاد إلى الجزائر بعد جولة في العالم العربي استغرقت ستة عشر عاماً.

توفي محمد بوشحيط بعد علي بن عاشور بثلاثة أسابيع فقط، تاركاً وراءه ثلاثة أطفال وأسرته الفقيرة التي لم يستطع إعالتها، ومجموعة مقالات في الأدب والسياسة، وكتاباً بعنوان: «الكتابة لحظة وعي ـ مقالات نقدية».

مقدمة

لا أزال أذكر كيف تزامن حديثي مع علي بن عاشور مع حدث تاريخي مهم، هو وصول اليسار الاشتراكي الفرنسي إلى السلطة. (سنة 1981) فقد صادف يوم إنهائنا تسجيل هذا الحديث (على عدة مراحل) احتفالات الباستيل، ابتهاجا بوصول فرانسوا ميتران إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية. مضت أكثر من عشرين سنة على هذا اللقاء جرى فيها ما جرى من أحداث تاريخية، بعضها مهم وبعضها أقل أهمية، كانهيار الاتحاد السوفيتي والاجتياح الإسرائيلي للبنان واندلاع أحداث الجزائر وحرب الخليج واتفاقيات السلام الإسرائيلي الفلسطيني ألخ.. رافقتها تغيرات في الفكر السياسي والثقافي عموما، لكن يبقى حديث علي بن عاشور محتفظاً بحيوية فكرية، وتظل لهذا الناقد الأدبي والسياسي على

وجه خاصّ صورة حية لا تغيب عن أذهان كل من عاصروه أو ناقشوه أو قرأوا إنتاجه.

هذا الحديث مع علي بن عاشور وكتابه «الكلمات نقدية في الأدب والحياة» وحدهما لم ينشرا رغم تقادم عهدهما، وبانتظار صدور كتابه (وهو في عهدة سهيل إدريس، صاحب دار الآداب بيروت) ننشر حديثه الذي يضمّ سيرة حياته مختصرة، وكذا موجزا لأفكاره النقدية والأدبية والسياسية.

رحل علي بن عاشور في منتصف شباط-فبراير 1996، وعمره 46 سنة، بعد أن عاش حياة مليئة بالترحال، مشردا بعد أن طردت فرنسا أهله وأسرته من الشرق الجزائريّ، فعاش بين تونس، حيث كانت نشأته، وليبيا وسوريا حيث درس الطبّ، ولبنان الذي عمل في صحافته، وفرنسا التي خاض فيها مجالات شتّى إبداعية وفكرية وسياسية دون كلل أو ملل.

علي بن عاشور كاتب جزائريّ معروف في المشرق أكثر منه في المغرب العربي. ولد « ذات فجر من آخر أيام العام 1950، في إحدى قرى تونس، حيث كان والده لاجئا. » وهناك أتمّ

دراسته الابتدائية ليعود غداة استقلال الجزائر، شأن كل اللاجئين إلى الأرض التي اغتصبها المستعمر الفرنسي. هناك بدأ دراسته الإعدادية في معهد ابن خلدون ببلكور بالجزائر العاصمة، حيث قضى عاما وبضعة أشهر، ليجد نفسه بعد ذلك ضمن البعثة الدراسية التي أرسلتها الجزائر إلى ليبيا عام 1964، فأتم بها دراسته الإعدادية والثانوية. وفي عام 1969، توجه مع عدد من حملة الباكالوريا إلى جامعة دمشق، فانتسب إلى كلية الطبّ، لكنه رغم اجتيازه المرحلة الصعبة من الدراسة تركها «للرهبان» حسب تعبيره «وازدادت كراهيتي لهذه الكلية- وكل مؤسسة تعليمية أخرى- لأنها كانت تأخذ كلّ وقت الطالب ولا تترك له مجالا لاكتشاف شيء، حتى نفسه بالذات تبقى غريبة عليه. فتركتها غير نادم لأغوص في أعماق الحياة سابراً أغوارها، لاعِباً أحيانا وجادّاً في أكثر الأحيان، وغادرت «جامع دمشق»- كما كنا نسمّي الجامعة آنذاك عام 1974.

في عام 1971، انتخب سكرتيرا لرابطة طلاب المغرب العربي بدمشق، ثم رئيسا لها حتى العام النقابي -1974 1975، كما كان سكرتيراً لمجلس المنظمات الطلابية العربية

في سوريا، وبعد أربع سنوات من النشاط اليومي المتواصل، سئم العمل النقابي الذي أعطاه كل جهده، خدمة لطلاب المغرب العربي، ولا سيما أولئك الذين كان ضيقُ ذات اليد يَحُول بينهم وبين إتمام دراستهم. ونفسح له المجال ليحدثنا عن تلك السنوات التي قضاها في العمل النقابي الطلابي. بدأ العمل كصحافي في بيروت عام 1975 عندما اضطرّ للهرب من سورية ذات ليلة، ليعمل في مجلة «الهدف» البيروتية، محررا للشؤون العربية والدولية. كان نادرا ما ينشر فيها مقالا ثقافيا. في الوقت نفسه كتب في العديد من الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية أثناء حرب السنتين في لبنان (1975-1976)، تلك الحرب التي دمرت الإنسان والبنيان أيضا، والتي عايشها بكل تفاصيلها. في الفترة نفسها كتب عدداً من الكراسات منها «كومونة باريس» في ذكراها الخامسة بعد المائة، وأخرى بعنوان «القمع في تونس» حلل فيها تاريخيا ظروف تونس السياسية والاجتماعية والثقافية التي أدت إلى ممارسات النظام القمعية خصوصا منذ عام 1978، وثالثة بعنوان «اليسار في أمريكا».. كما كتب مقدمة هامة لكراس من 72 صفحة بعنوان «المنظمة الشيوعية العربية» يتعرض فيها للأسباب العميقة التي أدت لظهور المنظمة وانتحارها

بنحر أبطالها على أعمدة المشانق عام 1975... عندما أيقن بن عاشور أنّ البقاء في لبنان بات مستحيلا، شد الرحال إلى باريس. ومع صدور مجلة «المستقبل» الأسبوعية في باريس، بدأ عمله مسؤولا عن القسم الثقافي فيها، وذلك عام 1977 لكنه لم يبق في عمله هذا إلاّ أشهراً قليلة «فسرعان ما شعرتُ أن مسؤولية القسم تأخذ كلّ وقتي، وتبلّد عقلي فاخترت أن أبقى في المجلة كناقد أدبي فقط... وذلك بدون توقيع وأحيانا باسم مستعار ونادراً بالاسم الصريح.» كل ما كتبه عليّ وتعذّر نشره في «المستقبل» وضعه جانباً، ليجد في نهاية العام 1978 أنه بات لديه مادة كتاب، لا سيما أنها تدور حول موضوع: نقد الأوضاع الثقافية السائدة في العالَم العربي، وتستحق النشر فوضع لها عنوان «لكمات نقدية في الأدب والحياة» واتفق مع سهيل إدريس على إصدارها في دار الآداب.

كان هادئا أحيانا وصاخبا أحيانا أخرى.. جادا كل الجد حتى الصراحة حينا، وساخرا حتى القرف من هذا العالَم حينا آخر. في هذا الجو تم حوارنا.

- من أنت؟

فأجابني بعد تردّد:

• سؤالك سهل وصعب في آن معا. ولو وجهته لغيري لأجابك «سؤال غريب مأجاوبش عليه». لكني سأحاول الإجابة ببساطة، أنا لا أحب التصنيفات، لكن ما العمل مع عالم تحكمه التصنيفات تماما كما يصنف ألدكاكيني سلعه. فأنا مصنف عند هذا التيار أو التجمع أو الحزب الأدبي أو الفكري أو السياسي في خانة لا يراها غيره. وطالما سمعت التصنيفات أحيانا يقولونها علنا وفي أغلب الأحيان سرا. فإذا اعتمدت على هذه التيارات أو التجمعات أو الأحزاب في أحكامها فإنك ستجد في كل التصنيفات التي ملت منها كل الصحف والأبواق (لا تضحك) فأنا حسب هؤلاء سلفي، مستقبلي، رومانسي، واقعي، دادائي، سوريالي، تحديثي، سلمي، إرهابي، اشتراكي، رأسمالي، شيوعي، مشاعي، ثوري، رجعي، إباحي، إنساني، نازي، ليبرالي، ماركسي، ذاتي، وجودي... وأخيراً وليس آخِرا حالم ومراهق أدبي وسياسي.. وفعلا أنا خليط من كل هذا، بل ربما أنا كل هذا، لأن لا أحد من هؤلاء السادة المصنفين تنطبق عليه الصفة التي يدعيها. طبعا أقصد منهم بالتحديد

العرب. وتأكد أن الذي سيقرأ هذا الكلام، سيمط شفتيه ويقول: ها، إنه انتقائي! نعم ربما كنت انتقائيا لأنكم يا سادة يا كرام «ينقصكم الجدل» كما قال ذلك الفيلسوف الألماني. ببساطة أقول لك إنني إنسان يحاول أن يكون منسجما مع ذاته في عالم فصامي حتى العظم، وذلك في انتظار أن يتصالح الإنسان مع ذاته ذاتها، أي ذلك اليوم الذي سيكون عيدا، له بداية وليس له نهاية كما يقول الروسي ميشال باكونين.

- ماذا لو تحدثنا، قليلا، عن تجربتك النقابية؟

• سوف أكون مضطرا للاختصار مرة أخرى، حتى لا يتشعب الحديث فلا نجد له نهاية. طبعاً، عند دخولي الجامعة انتسبت ككل طالب للاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين. وأنت تعرف أن نهاية الستينات وبداية السبعينات عرفت صراعا فكريا عنيفا اعتمل داخل الجامعة الجزائرية وانعكس صداه على الطلبة الجزائريين في الخارج، خصوصاً القاهرة وباريس وموسكو ودمشق.. لقد تمحور الصراع آنذاك بين أعداء التقدم المتخلفين والمتحجرين وأنصار التطور والانفتاح على الفكر الثوري الجديد الذي كان يهب آنذاك على أكثر من منطقة في صفوف الشباب،

وبين من يسمّون بـ «المتعربين والمتفرنسين». ولقد كانت مهمة الاتحاد خصوصا في فرعي القاهرة ودمشق إثبات أن اللغة العربية قادرة بدورها على استيعاب العصر، ولا أخفي عنك أن هذه المهمة كانت على جانب كبير من الصعوبة. فالمسؤولون المباشرون على الطلاب في سفارات الجزائر بالمشرق كانوا مع الأسف من دعاة التحجر. في أول عام جامعي لي تقدمت في انتخابات هيئة الفرع في دمشق فما كان من أنصار التحجر إلاّ النضال لإسقاطي، وسقطت فعلا. غير أن الوضع داخل رابطة طلاب المغرب العربي كان يختلف كثيراً، فاستطاع التقدميون في نفس العام السيطرة على قيادتها والنهوض بها إلى مستوى المنظمة النقابية المناضلة بشكل فعليّ وفعّال، فاستردت دورها الريادي في الجامعات السورية الذي افتقدته باستقلال الجزائر عام 1962. فقد استطاعت أن تصبح المنظمة الطلابية الأكثر بروزاً في السنوات السبعينية الأربع الأولى، حتى أن منظمات المقاومة الفلسطينية في سورية كانت تدعوها لاجتماعاتها للمشاركة بمختلف أنشطتها، وفعلاً كان لنا صوت كصوت فتح أو الجبهة الشعبية... ألخ. طبعا، كل ذلك أدى إلى مضايقات عديدة من قبل السلطة لم أتحملها في النهاية واضطررت لترك

دمشق ومغادرة جامعتها. لكن الحنين دعاني بعد عام إلى العودة إلى دمشق لأجد الشرطة تبحث عنّي قصد اعتقالي مع ثمانية طلاب آخَرين بأمر - مع الأسف- من سفير الجزائر في دمشق الذي أقنع السلطات في الجزائر، وبالفعل هذا ما ثبت بعد ذلك. وهكذا اضطررت أنا والزميل محمد بوشحيط إلى الاختفاء عدة أيام في دمشق ثم الفرار ذات ليلة إلى لبنان. وكانت نقطة النهاية والقطيعة مع تجربتي النقابية التي دامت أكثر من خمس سنوات وهي على سلبياتها الكثيرة مهمة في تكوين الإنسان. وفي بيروت وجدنا أن غالبية قيادة المقاومة الفلسطينية والأحزاب اللبنانية قد قامت باتصالات على أعلى المستويات لإطلاق سراحنا.

- كيف استقبلت عندما وصلت إلى بيروت ؟

• طبعاً، كان لي العديد من الأصدقاء اللبنانيين والفلسطينيين والعرب الآخَرين المقيمين في بيروت، وأغلبهم من المغضوب عليهم في بقية عواصم الرعب العربية، فكان لا بد للمتشردين من تضامن! فوجدت كل المساعدة المادية والمعنوية من طرفهم، وربما كانت أحلى أيام حياتي هي تلك التي قضيتها رغم الحرب والدمار الذي سحق البلاد والعباد سنتي 1975-1976.

- كيف ترى الحرب اللبنانية وإلى أي مدى أثّرت عليك؟

• إنها حرب شائكة ومعقدة فعلا. ولن تستطيع الكلمات أو السطور مهما طالت أن تحلل الأسباب العميقة التي أدت إلى إشعال فتيلها واستمرارها من سنة 1975 حتى الآن. إنها شيء من الحرب الأهلية وشيء من الحرب الطائفية. إنها تعبر عن شيء من الصراع الاجتماعي وشيء من الصراع الديني. هي حرب الفقراء اللبنانيين على بورجوازيتهم المركنتيلية، وحرب أغلبية الشيعة أو المسلمين الذين يشكلون مواد المجتمع اللبناني على الموارنة أو المسيحيين الذين يشكلون الفئات الميسورة من المجتمع. إنها حرب الصهاينة على الفلسطينيين، أو بالأحرى حرب الفلسطينيين على عملاء الصهاينة في لبنان، وبالنهاية إنها حرب كل العرب المتسلّطين على الفقراء واللاجئين اللبنانيين والفلسطينيين، وربما أبعد من ذلك حرب الطبقات العربية السائدة على الطبقات العربية المسودة: حرب الاستبداد العربي على الديموقراطية الليبرالية التي أزعجت طويلا سادة العالَم العربي وقصوره النفطية الساهرة قلقا. هذه هي باختصار الحرب اللبنانية. إنها

تعبير عن جوع مزمن في عيون أطفال المخيمات الفلسطينية وحزام البؤس اللبناني الذي يطوق العاصمة بيروت. كما أنها أيضا تعبير عن رعب مزمن في عيون أطفال الموارنة من الغرق في بحر إسلامي.

وبطبيعة الحال فإن كل إنسان مهما كانت غلظة قلبه لا بد أن يتأثر نفسيا في جو من هذا النوع خاصة إذا طغت فيه الدماء على الدموع ولم يذهب ضحيته إلاّ الأطفال أو الشباب الفقراء الطيبون من الطرفين. إنهم مخدوعون يقتلون مخدوعين! إنهم شباب ثوري أو بريئون في خدمة قضايا غير ثورية في غالب الأحيان، لذلك لا بد أن ينتابك نوع من الحزن العميق الذي إن طال تحوَّل بالتأكيد إلى كآبة أبدية قد تضطرك إلى الانزواء أو العزلة القاتلة للنفس والروح. ولهذا فضلت بعد أن سئمت مشاهدة حمامات الدم، ترك بيروت مع ألم وغصة في النفس. فبيروت كانت العاصمة العربية الوحيدة التي ما زالت تحتفظ برعشة حياة تستحق أن تعاش.

ويكفي القول أيضا أن ليست كل نتائج الحرب اللبنانية سيئات، فهناك بعض المحاسن وبعض الإيجابيات ثوريا،

مثل تجارب التسيير الذاتي التي حصلت في هذه المنطقة أو تلك من لبنان عبر اللجان الثورية التي انبثقت عفويا في الأحياء والشوارع وبعض القرى والأرياف؛ خصوصا في الجنوب اللبناني الفقير قبل أن تجهز عليه إسرائيل باحتلالها إياه لمدة أيام عام 1987 وتشريد أهله نحو صيدا وبيروت. كما أن هناك على المستوى الأدبي والفكري إبداعات شابة تفتقت بتأثير هذه الحرب، وأن هناك المئات بل الآلاف من الشباب الذين زالت عن عيونهم غشاوة الأوهام، خصوصا أوهام الأحزاب البيروقراطية.

- كيف تحدد نفسك إبداعيا، تركت الطبّ لتنتقل إلى الصحافة، وكتبت في السياسة ثم في الأدب، فكان لمقالاتك صدى ملموسا، فهل أنت كاتب أم ناقد أم...؟

• أعتقد أن التخصص قد ولد مع سيادة النمط البورجوازي في الاقتصاد. فبِنَجَاح الثورة الفرنسية الكبرى انتهى عصر الموسوعيين الأفذاذ منوري القرن الثامن عشر الفرنسي طبعا. انتهى إذاً عصرُ الأنسكلوبيديا ليحل محله عصر التخصص. فكما فصلت البورجوازية العامل عن نتاجه، فصلت الإنسان عن نفسه ذاتها، وغدا الإنسان

فصاميا في كل مكان. ولم تكتف الرأسمالية المجرمة بهذا الفعل الشنيع بل راحت تفصّل هذا المنتوج المادي أو الفكري إلى عدة أصناف. فكما تنوعت أصناف المعلّبات، تنوع الإنتاج الأدبي والفكري. إذا غدوت إلى التاريخ العربي خصوصا في العصرين العباسي والأندلسي فإنك ستجد أننا قد مررنا بمرحلة الموسوعيين الكبار؛ كنت تجدهم وهم يكتبون الطب أو الكيمياء يتكلمون شعرا وحكمة وفلسفة في ذات الوقت. إذا، فمشروع الإنسانية الثوري -إن كان ثوربا حقّاً- هو مصالحة الإنسان مع نتاجه ومع نفسه وإعادة شموليته وكليته كما كانت. لكن في ظروف مادية وعلمية أرقى. من هنا أعتقد أن على الإنسان الثوري، الفنان، المبدع، الناقد وهي كلها، باعتقادي، مترادفات لكلمة واحدة، التحريض منذ اليوم على ظهور هذه الشمولية وتعويد الناس على النظر للحياة بمنظور شمولي وكامل أيضا. لذا أعتقد أنني إذا كنت ناقدا فسأكون شمولي النقد، أي أكون ناقداً في الأدب كما في السياسة والحياة. من هنا لا فرق بين كتاباتي السياسية والأدبية، فأنا أعتبرها كلها نقدا لهذه الحياة الميتة والمميتة.

أريد أن أعود معك هنا قليلا إلى الوراء. فعندما تفتّحت عيناي في نهاية الستينات، كانت منطقة الشرق العربي بل العالم

العربي بأسره تعيش مرحلة من النهوض الثوري لم تشهدها منذ قرون. وقد وجد هذا النهوض الثوري تعبيره في صعود حركة المقاومة الفلسطينية التي لم تكن مشروعا لتحرير الأرض الفلسطينية فحسب، بل مشروعا تاريخيا لتحرير الإنسان على امتداد العالَم العربي. وقد كان من الممكن أن تكون الثورة الفلسطينية مع ثورة ضفار فتيلا حقيقيا لثورة عربية الإطار وأممية المضمون. لكن ظروفا عديدة تحالفت ضد هذا المشروع الذي لم يكن قد اشتدّ عوده لقبره في المهد. فكانت الضربة الكبرى في أيلول- سبتمبر1970 في عمّان. وبهذه الضربة سقط أمله وبدأنا كجيل للهزيمة الكبرى نبحث عن بدائل أخرى. لذا فكلّ نقد للأدب أو السياسة أو الحياة بشكل عام هو جزء من المساهمة في البحث عن هذه البدائل. [هنا أعتقد أنني قد أجبت عن سؤالك].

- هناك من يقول إن علي بن عاشور ليس لديه أدب، أي ليس لديه إ نتاج فعليّ، فما رأيك؟

• أحب أن أؤكّد لك في هذا الحديث أنني لست أديباً، لأني لا أعتبر ذلك شرفا. لأن الأدب خاصة عندنا - ومع الأسف- لا يخرج عن كونه تقريظا تافها لهذا الحاكم أو

ذاك، لهذا المتسلط أو ذلك المتجبر. إنه في أحسن الأحوال «مداهنة» للأنظمة الحاكمة لا مهادنة لها فقط، وهو ليس نقدا لها. وأعني بالنقد هنا امتشاق سياط الكلمات التي لا ترحم في وجه استبداد السلطة المطلقة في كل مكان من عالم اليوم من موسكو إلى واشنطن مروراً ببكين وكل ديار العالم القديم. إنه النقد الذي لا يلين لاستبداد الرأسمالية البيروقراطية في الشرق والرأسمالية الخاصة في الغرب، لاستبداد السلطة الدينية الغبية في الجنوب والسلطة المادية الغبية في الشمال. إذا، باختصار لست أديباً بل أحاول أن أكون ناقداً للأدب والسياسة والحياة بشكل عام. لدي كتاب جاهز للطبع منذ سنة 1978، ورغم اتفاقي مع إحدى دور النشر في بيروت على طبعه ورغم أنني قبضت بعض الليرات من مردوده مسبقا فإنني -نكاية بالبعض- لست متسرعا لإصداره، وسأصدره ساعة يطيب لي المزاج. ولقد سميت هذا الكتاب «لكمات في الأدب والحياة» وهو عبارة عن عدة دراسات نقدية في الرواية، والقصة، والشعر والمسرح شرقا وغربا، عند العرب وعند الغرب، مع مجموعة من الحوارات مع بعض الذين أثروا في حياتنا الفكرية العربية.

- هل كتابك محاكمة، ولو موجزة لمسيرة الأدب العربي الحديث ؟

• قبل الخوض في هذا الموضوع الهام والشائك، أجد أن من الواجب علي أن أؤكد لك أنني من رأي تريستيان تزارا (مؤسس الحركة الدادائية بعد الحرب العالمية الأولى) ورفاقه فيما بعد في الحركة السريالية، القائل «إنّ الثقافة قد ماتت بعد أن اتّحدتْ بالإعلام والسلطة في كل مكان ونضب معين التجديد فيها ولم يعد هناك من مبرر للإبداع سوى التحريض اليومي المباشر لإلغاء الثقافة، أي بتعميمها فعلا معيشا في الشوارع كما في الحياة، وهذا ما أكده لينين الثوري وحرضت عليه روزا لكسمبورغ. لا بل إن الآباء الحقيقيين للدادائية وابنتها الشرعية السريالية وأعني بهم رامبو، لوتريامون Lautréamont، والماركيز دو صاد قد نعتوا الثقافة قبل هؤلاء، فقد فضّل رامبو كتابة الشعر بجسده على كتابة الشعر بقلمه فغادر مملكة الشعر وهو بعد طفل (23 سنة) إلى مجاهل أفريقيا واليمن، تاجر سلاح وهي فعلة كما ترى لم يفعلها أحد من شعراء اليوم الثرثارين الذين لا يجرأون على ترك هذه المملكة حتى عندما يحسون بقناعاتهم الشخصية

أنهم انتهوا شعريا.. واكتفى لوتريامون العظيم مثلا بديوان واحد هو «أناشيد مالدورور» Les chants de Maldoror كما رضي الماركيز دو صاد أن يدفع من حياته العارمة إحدى وثلاثين سنة سجنا في إحدى المصحات العقلية ثمنا لحريته. فقد رفض هذا الشهم توكيل أي قرد بورجوازي بتسيير إقطاعاته الطائلة وخاض نضالا مريرا ضد اضطهاد عائلته «التي لوث شرفها!» وضد العجوز الشمطاء التي كانت تدير مصحته العقلية... ونجد كل ذلك في رسائله المنشورة مؤخراً بالفرنسية.

إذا، أنا من رأي هؤلاء، ومع ذلك فلا بأس إذا أردت مني محاكمة ديموقراطية سريعة لمسيرة الأدب العربي الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر. مع الإشارة إلى أن تاريخنا - مع الأسف- لم يعرف مثل هذه المحاكمة. فمن خلال تاريخنا الحديث نكاد لا نجد عربيا واحدا يقدم لنا فكر الآخر كما هو، دون إضافة أو تزوير. فإذا، ستكون هذه المحاكمة مهما أَطَلْتُ عليك، ناقصةً لأنها ليست مهمة شخص واحد بل هي مهمة جيل بكامله إذا أردنا أن ندخل، نحن العرب، التاريخ من أبوابه الواسعة لنسهم في عملية التغيير وبلورة الصيغ

المطروحة منذ اليوم على جدول الإنسانية المتألمة في كل مكان، والتي بدأت تستعد لتقول كلمة الفصل. ولعل أبرز من عبّر عن وضع البورجوازية العربية هذا هو الشيخ حسن العطّار في بداية القرن التاسع عشر مع حملة نابليون على مصر. فبعد أن نجده يدعو تجار القاهرة إلى عرك عيونهم بعد السبات العميق وإلى الأخذ بفكر البورجوازية الأوروبية واللحاق بها صناعيا، نجده يعود ويستغفر ربه ثلاثا! في كتابه الشهير «مقاومة الأديب الرئيس الشيخ حسن العطار في الفرنسيس» كما أن تلميذه رفاعة رافع الطهطاوي لا يشذ عن هذه القاعدة فهو يدعو البورجوازية العربية في كتابه «تخليص الإبريز في تاريخ باريز» إلى الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية وترك فكرها الملحد، لأنه على حدّ قوله «يفسد عقول الشباب ويجعلهم يفقدون دينهم» العزيز على قلبه. وهذا أيضا ما سنجده فيما بعد في كتابات علي مبارك، وعند المويلحي في كتابه «حديث عيسى بن هشام» الذي يصف فيه سلع البورجوازية الغربية بأنها محاسن وفكرها الراديكالي مساوئ. وكما التقى مثقفو البورجوازية العربية اليمينيون بالثورة الفرنسية كاستعمار ثم كامبريالية منحطة، التقى يسار المثقفين العرب بالماركسية كستالينية أي كثورة مضادة. فهذا فرح أنطون يقول في كتابه

«الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث»: «يجب اتباع مسلك ستالين في الأخذ بيد العمال المظلومين» فيا لها من ثورة حمراء! وكذلك سار على دربه شبلي شميل وسلامة موسى. لكن لا بد من الإشارة إلى أن المثقفين العرب المسيحيين، وبخاصة الشاميين، كانوا أكثر جرأة من رفاقهم المسلمين بالنسبة لقضية فصل الدين عن الدولة وكذلك بحكم وضعهم كأقليات دينية في بحر من المسلمين. لذلك كثيرا ما نجدهم يدافعون عن فكرة القومية العربية. وبعد ثورة 1919 في مصر والتي كانت قيادتها وفدية إصلاحية وقاعدتها عمالية فلاحيه، انضم جيل جديد من المثقفين المسلمين إلى رفاقهم المسيحيين في الدعوة لفصل الدين عن الدولة، وبذلك غدت هذه الدعوة جماهيرية حقه. فقد نهض مثلا الدكتور محمود عزمي للدعوة إلى تحديث القوانين بما فيها القوانين الشرعية، بل راح إلى أبعد من ذلك في الدعوة إلى توحيد هذه القوانين بين المسلمين والمسيحيين خاصة في مواضيع الإرث والزواج. وهي تقريبا نفس الأفكار التي تبناها الطاهر الحداد في تونس عام 1932 في كتابه «امرأتنا والشريعة». هذه الأفكار لم تستطع البورجوازية الإسلامية التونسية -وهي أكثر البورجوازيات العربية جرأة في هذا الموضوع- تحقيقها

عندما سيطرت على السلطة عام 1957، فقط طالب الحداد بإلغاء عقوبة الزنا التي كان لينين قد ألغاها عام 1918، كما ألغى أيضا عقوبة «المثلية» التي أعاد تطبيقها ستالين فيما بعد عام 1928. بالإضافة إلى كتابات الدكتور محمود عزمي في جريدتي «الأهرام» و«الاستقلال» الواسعتي الانتشار آنذاك، فقد تصدّى الدكتور طه حسين للدفاع عن نظرية العقل وطرد الفكر الغيبي من العقول العربية وذلك في كتابه الرائد الهام «في الشعر الجاهلي». وسار على نحوه الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم: بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام»، ولطفي السيد، لكننا، مع الأسف، نجد أن كلّ هؤلاء قد ثابوا إلى رشدهم في آخر أيام حياتهم وندموا على ما ارتكبوه في شبابهم من خطايا.

وربما وجدنا في دعوة الرئيس (محمد أنور السادات!) إلى العودة إلى أخلاق القرية أصدق تعبير عن ارتباك المثقفين العرب. فإذا أردنا الرجوع إلى إنتاجاتهم فإننا سنجد حنينهم الأبدي للعودة إلى القرية وسحر الشرق وفكره الغيبي. هذا ما نجده في «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم وفي «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، حيث نرى أن طالب الطب المصري

الذي درس في أوربا لم يجد في العلم شفاء للأمراض وإنما وجد ذلك في سحر وشعوذة الشرق. كما أن بطل «موسم الهجرة إلى الشمال» لصاحبها الطيب صالح يحن لأخلاق قريته في السودان أمام عجزه عن إيجاد البديل الثوري لأخلاق العرب. ولا أطيل، فكل المثقفين العرب تصالحوا بعد هفوات الشباب مع بورجوازيتهم المتخلفة وفكرها الغيبي المتخلف. لكن مع ذلك لا يجب أن نحمّلهم أكثر من طاقتهم، وبالأحرى لا ينبغي أن نظلمهم، فكثيرٌ منهم رغم توبته، قدم لنا الكثير نسبيا. فطه حسين فتح عقولنا على العقل والمنطق الغربيين وفتح نوافذ فكرنا على مذاهب النقد الغربي الحديث. وتوفيق الحكيم عرفنا بالمسرح اليوناني والروماني القديم وحلل لنا تاريخ الأسطورة في الشرق والغرب على حد سواء. كما أن نجيب محفوظ أدخل إلى ثقافتنا فن الرواية البورجوازي الحديث، رواية زولا وبلزاك الفرنسيين. كذلك قدم لنا الدكتور لويس عوض كل المدارس الفكرية الأوروبية الحديثة خصوصا عبر كتب دار الهلال الشهري، ومثله عرفنا الدكتور حسين فوزي على مدارس الموسيقى الغربية الحديثة وروّادها. كما أن الدكتور يوسف إدريس أرسل لنا قواعد الفن القصصي. وعلى هذا المنوال قدم لنا

عبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن منيف في الرواية وزكريا تامر وغالب هلسا في القصة وعصام محفوظ وعز الدين المدني في الكتابة المسرحية، وبدر شاكر السياب وأدونيس ونزار قباني ومحمود درويش ومحمد الماغوط في الشعر. ولا ننسى ما قدمه شعراء الأدب المهجري عمالقة القصة الرومانسية أمثال إيليا أبو ماضي وجبران خليل جبران ومثلهم رواد مدرسة أبولو في مصر وأبو القاسم الشابي في تونس. طبعاً، أذكر لك هؤلاء عفو الخاطر ودون ترتيب لأن هناك، ولا شكّ، غيرهم ممن ساهموا مساهمة كبيرة في مسيرة الثقافة العربية الحديثة.

- لقد نسيت الأدب العربي الشابّ، خصوصا في العقد الأخير ؟

• لا شكّ أن جيلا جديدا من الأدباء الشباب على امتداد العالم العربي، وعلى هذا الجيل تقع برأيي مهمات جديدة هي غير تلك التي اضطلع بها سابقوهم. على أدبهم أن يكون تخريبيا بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وباعتقادي أن معظم هؤلاء لا تبتسم في وجوههم صفحات الصحف الرسمية وغير الرسمية، المقيمة منها والمهاجرة. فكل هذه الصحف معادية في الصميم لكل تفكير بشري محرّر ومُحرر

فعلا، فجميعها أبواق للنظام السائد وتفكيره البليد المبلد والغيبي الغبي. وأعرف عديدا من المبدعين الشباب العربي في بيروت مثلا تسألهم -كل دار نشر- يدقون أبوابها، طلبا لنشر إنتاجاتهم عن الدول العربية التي تمنع فيها أسماؤهم من التداول. لذلك كثرت في السنوات الأخيرة منشورات «سامسات» أي (أنشر ما تكتبه ووزّع كتاباتك بيدك) ولا أقصد هنا المنشورات السياسية الببغائية، بل منشورات أدب الإبداع وأدب النقد. إذا كما ترى، فإن هؤلاء سواء من كان منهم مهاجرا أو مقيما هو ممنوع بالضرورة من النشر في جميع البلدان العربية، فالنظام العربي يمنع كل نقد حقيقي لأنه خطر على وجوده ذاته. وإذا ما صادف أن سمح ببعض النشر فإنه يحسب لذلك ألف حساب ويكون قد اطمأن مسبقا لإمكانية احتواء الأدب النقدي مستقبلا.

- ما رأيك لو انتقلنا قليلا إلى الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، فهناك من يتهم هذا الأدب ببعده عن معايشة مشاكل الإنسان في المجتمع الجزائري؟

• أعتقد أن هناك شيئا من الصحة في هذا الرأي، لكن من الخطأ التعميم. وكما أسلفت فإنني لا أريد أن أظلم أحدا. فمن ناحية لغة هذا الأدب نجد أن هناك انفصالا بين

الأديب ولغة مجتمعه، وهذا باعتقادي ليس ذنب الأديب بل نتيجة ظروف تاريخية أرغمت المثقف الجزائري على أن يكون فرنسي اللسان. ولا حاجة للإطالة في شرح هذه الظروف فكلنا يعرف ما فعل قرن ونيف من الاستعمار لقطع لسان شعب بأكمله، إذا لا عتب على كتّابنا إن كتبوا بالفرنسية، بل العتب الوحيد هو تجاهل بعضهم، أي ذلك العداء الدفين الذي انغرس في لاوعيهم للغة العربية، وهو اعتقاد بعضهم بعجز اللغة العربية عن الإبداع كتابة. وأعتقد أن عدم تعلم الأحياء منهم اللغة العربية بعد الاستقلال هو الجريمة بعينها. لذلك يدخل في باب التنبلة (الكسل). فإذا نظرنا إلى أوضاع مجتمعات عانت نفس معاناة المجتمع الجزائري لغويا، نجد أن مثقفي هذه المجتمعات تجاوزوا هذه العقدة، فالمثقفون الفيتناميون مثلا «فتنموا» أنفسهم خلال عام واحد بالرغم من أن اللغة الفيتنامية تشبه إلى حد كبير الهيروغليفية، ففي ظرف سنة غدت الفيتنامية لغة العلم والحياة في فيتنام. وكذلك فعل الإسرائيليون بعد قيام الدولة الصهيونية في فلسطين، ففي ظرف عامين «عبرنوا» كل مظاهر العلم والحياة مع العلم أن اللغة العبرية لم يكتب بها من قبل ذلك التاريخ سوى «الكتاب المقدس» وبعض الأساطير اليهودية.

كما أننا نجد الأدباء في إسرائيل قد أصبحوا منذ عام 1950 يكتبون إنتاجهم باللغة العبرية بعد أن تعلموها في إسرائيل وهجروا الكتابة بلغات المجتمعات التي قدموا منها. طبعا، شخصيا لا أطلب من كتابنا بالفرنسية أن يكتبوا بالعربية فهم أحرار، بل كل ما أطلبه هو أن يقرءوا باللغة العربية، لأنهم بدونها لن يتعرفوا على مسيرة الفكر أو الصراع الاجتماعي الذي عصف بالعالَم العربي خلال القرنين الماضي والحالي، وبذلك أعتقد أنهم لا يستطيعون أن يساهموا في مسيرة الإنسان الجزائري نحو قضية التغيير التي لن تكون بحكم التاريخ سوى عربية الإطار. بطبيعة الحال لقد أعطى كتابنا باللغة الفرنسية ما كان مطلوبا منهم تاريخيا، فكُتّاب مثل مولود فرعون ومالك حداد ومحمد ديب وكاتب ياسين وغيرهم أعطوا للإبداع الإنساني الكثيرَ، أعطوا كل ما كان مطلوبا منهم للقضية الوطنية، لقد استطاعوا أن يعكسوا قضايا مجتمعهم وطموحاته لقراء اللغة الفرنسية في العالَم. وقد ساهمت ترجمات بعض إنتاجهم للغات أخرى في إسماع صوت المجتمع الجزائري كبقية مجتمعات العالَم. كما تجدر الإشارة إلى أن هذا المضمون الوطني لبعض إنتاجهم لم يمنع التفرد الإبداعي الإنساني عند بعضهم، وأذكر بشكل خاص

كاتب ياسين الذي دخل برأيي تاريخ الأدب الإبداعي العالمي من بابه الواسع. فقط ملاحظتي حول هذا الفنان المبدع عقدته من اللغة العربية التي لم يستطع - مع الأسف- التخلّص منها.

- ما رأيك في الأدب المكتوب باللغة العربية في الجزائر؟

• هنا بيت القصيد، فتاريخيا نجد أن الذين اضطلعوا بالتعريب في الجزائر سواء على صعيد الكتابة أو الحياة هم من دعاة السلفية والماضي والتحجر. فبدايات هذا الإنتاج في الثلاثينات غالبا ما كانت تنتمي إلى عصور الانحطاط العربي ولا تنتمي إلى ما وصل إليه تطور الفكر واللغة في المشرق العربي. نجد فقط شيئا من هذا التفتح عند رضا حوحو الذي اطّلع مبكّرا على إنتاجات طه حسين وتوفيق الحكيم بشكل خاص، لذلك نجد عنده نفحة من التجديد. أما الآخرون فكلهم تقريبا داروا حول موضوعات عفا عليها الزمن وبلغة لها طعم القديد وملمس الخشب، ويخاطبون الجماهير بلغة قمعية مستوردة من ترسانة ماضينا الغيبي التعيس. من هنا في اعتقادي جاء الالتباس الذي

تكوَّنَ عند بعض مثقفي اللغة الفرنسية حول اللغة العربية. ومع الأسف فإن هؤلاء هم الذين تصدّوا لقضية التعريب بعد الاستقلال. لذلك وجب التصدّي لمثل هؤلاء من قبل الجيل الجديد الذي استعاد لسانه لكن بمضمون جديد كل الجدّة هذه المرة.

- ما رأيك في الطاهر وطّار في هذا المجال؟

• بدون شك الطاهر وطار يختلف عن أولئك السلفيين الذين تحدثنا عنهم. لقد بدأ عندما كان شابا بدايات جيدة نسبيا، فقد كتب بعض القصص التي تقف ندا لقصص بعض الكتّاب في المشرق العربي. وكانت لديه في كتاباته الجملة البسيطة المعبّرة والفنية، لكنه عندما بدأ يكتب الرواية نجد أنه فشل فشلا ذريعا. وكما قلت لك سابقا إن الرواية ليست مزحة أو قرارا شخصيا يتخذه هذا أو ذاك من الكتّاب. الرواية مرتبطة بحقبة تاريخية تمرّ بها هذه الأمة أو تلك. مثلا، في مصر لم تظهر الرواية إلا عندما كان هناك صعود تاريخي للبورجوازية المصرية، أي عندما كانت تصارع من أجل تحقيق ذاتها وتحقيق استقلالها عن البرجوازيات المستعمرة. طبعا، لا أقول إن الرواية مرتبطة ارتباطا أوتوماتيكيا بصعود

البورجوازية، لكن أريد أن أؤكد أن الرواية ارتبطت دائما في الغرب كما في الشرق باحتدام الصراع الاجتماعي الذي يُفضي إلى سيادة البورجوازية الثورية على مسرح التاريخ أو انهيارها وتراجعها إلى المحافظة الفكرية والدينية. وبما أن تاريخنا العربي لم يعرف صراعا اجتماعيا وصل إلى لحظة الفصل، أي أننا لم نعرف ذلك الفرز الطبقي الذي عرفه الغرب، فإننا نجد الرواية كنوع أدبي تكاد تكون غائبة. وباختصار فقد قرأت كل ما كتب ونشر وطّار فلم أجِد سوى التكرار. فباعتقادي أنه اعتزّ بنفسه، وبالتالي أصبح يرى في الكتابة مهنة ويعتقد أنه من الضروري أن يُطلَّ على القراء ولا يهمّه إن كان العمل الذي يقدمه سيئا أو جيدا، طالما أصبح معروفا في السوق. وهذه قمة العقلية التجارية في رأيي؛ فالكاتب الجيد أو المبدع يحتقر السوق أصلا ويسمو عليها. المهم أن روايات وطّار نوع من الخطاب السياسيّ والأيديولوجي المصطنع والمشوه في غالب الأحيان. لقد قرأت روايته الأخيرة «الحوات والقصر» فوجدتها فعلا كما قال عنها أحد النقاد قريبة من المقال السياسي وأحداثها مشتّتة وغير قادرة على التماسك الداخلي. وهي كرواياته الأخرى لا تختلف عن روايات موظفي «نوفوستي». كل ما يضيفه إليها

هو أن السلطان كان بريئاً وأن الشر ليس منه بل من حاشيته السيئة. كأن السلطان ليس مسؤولا عن اختيار حاشيته، وهو على أية حال يلوك أسطورةً ظلت منذ لويس الرابع عشر تشيعها المخابرات بين الغوغاء لتبرئة الملك الحنون على رعاياه وتوجيه غضب المظلومين إلى خدمه وحشمه. وبالتالي فإن جلالة الملك عندما يرى الغضب الشعبي آخذا في الغليان يتناول خروفا أجرب من حاشيته ليقدّمه «كبش فداء» كما فعل اليهود في تاريخهم الأسطوري ليتحمّل سيده أخطاءه وخطاياه بحقّ عباده. أما اللغة التي يستعملها وطّار في هذه الرواية فهي باردة وميتة ومتخلّفة حتى عن كتاباته السابقة وهذا طبعاً، ناتج عن تكرار النفس. أُريد أن أُضيف أن كل أعمال وطّار منهوبة من رواية كتّاب مغمورين سوفياتاً يأخذ فكرتها وحتى تسلسل أحداثها ويعيد صياغتها ويغير أزمنتها وأمكنتها وأسماء أبطالها ليقدمها فيما بعد على أنها من بنات أفكاره لتُباع وتشترى في الأسواق.

- هل لك دليل أكاديمي أو علمي على ما تقول؟

• لقد تكلمتُ عن هذا في كرّاس سرّي أصدرته في العام الماضي عن طاهر وطّار وأشياء أخرى وأريد أن أؤكد

لك هنا أنني لست بصدد دراسة أكاديمية لكي أثبت لك نهبه لرواياته من أعمال السوفيات المغمورين. فتلك مهمة من يريدون العمل الأكاديمي وهي مهمة سهلة بالنسبة لهم، فحسبهم أن يعودوا إلى ترجمات دار «التقدم» الروسية. بالنسبة إليَّ كنت مجبراً على قراءة كتابات وطّار باعتباري جزائريّا، وغالبا ما أُسألُ عن الكتابات الجزائريّة من قبل المثقفين المشارقة. وهي مهمة شاقّة عن النفس كما ترى لأنه من العبث رصد كلّ إسهال كتابي يُصاب به هذا أو ذاك من أشباه الكتّاب شبه الأُميين.

- في الكرّاسة التي ذكرتها تتّهم الطاهر وطار بالبربرية، فما رأيك بالمناسبة بموضوع البربرية الذي يحاول البعض طرحه الآن في بلادنا؟

• موضوع البربرية موضوع شائك أي سهل وصعب في نفس الوقت، أو بالأحرى كان موضوعا سهلا، ومع الأيام أخذ يغدو صعبا. لكن باستخدام العقل والحكمة يمكن حلّ الموضوع بسهولة. هناك فئة من الناس استغلّت ظروفا معيّنة لتُطَالِب بلغتها لاستعمالها في أفراحها وأحزانها. مبدئيا هذه المطالبة في محلّها والتصدّي لها في اعتقادي جريمةٌ لأن ذلك

يعقّد الموضوع ويشعّبه ويجعل المطالبين به ضحايا وبالتالي تتخلّد قضيتهم. برأيي لا بدّ من إتاحة الفرصة لكل فئة من الناس ليعبّروا باللغة التي استعملها آباؤهم وأجدادهم في الراديو وفي التلفزيون والحفلات الفنية، وحتى أن يكتبوها إن استطاعوا.. المشكلة الحقيقية برأيي في الجزائر هي مشكلة الصراع بين العربية والفرنسية وليست بين العربية والبربرية. ودعاة البقاء على اللغة الفرنسية استغلّوا موضوع الحرمان الذي يلاقيه مواطنونا بالنسبة للتعبير لكي يضربوا محاولات التعبير التي سارت في الجزائر بخُطى متعثرة وبطريقة تخلو من التخطيط العلمي. فإذاً، المشكلة هي في تعميم التعريب في جميع مراحل وفروع التعليم وكذلك في جميع محاولات التسيير والإدارة اليومية لتصبح الفرنسية فيما بعد مجرد لغة أجنبية ضرورية لحياة الإنسان المتعلّم والمثقف مثلها مثل كل اللغات الأجنبية الأخرى الضرورية في هذا العصر المتطوّر بسرعة، والسائر نحو وحدة البشر. اللغة البربرية لغة ميّتة كما نعرف جميعا، وهي بالنسبة للحياة اليومية عاجزة عن التعبير عن كل شيء، فهي تستعير على الأقل 40 في المائة من العربية، وإلى ما غير ذلك من مجالات الحياة؟! فما بالك بالنسبة للحياة العلمية والسياسية والاقتصادية، فعندما

تصبح اللغة العربية هي السائدة في جميع مجالات الحياة، فإن البربرية لن تجد غير اللغة العربية لتستعير منها كل ما تعجز عن التعبير عنه. عندها قد تغدو البربرية إحدى اللهجات العربية. وعلى كل حال، فإن إحدى النظريات الإثنية تؤكد أن البربر هم من أصل عربي هاجروا إلى شمال أفريقيا مع هجرات العرب الأربع الكبرى، خصوصا بعد انهيار سدّ مأرب. وتعميم اللغة العربية مرة أخرى هو أحد المهام الكبرى لهذا الجيل الجديد الذي بدأ ينطق بلسان عربي فصيح.

- هل يمكنك أن تقيّم أدب الشباب المكتوب باللغة العربية في جزائر اليوم؟

• بصراحة، لن أستطيع تقييم هذا الأدب، لأني لستُ على اطّلاع شامل بما كتبه الأدباء الشباب في الجزائر. لقد أُتيحَت لي الفرصة للاطّلاع على الجزء اليسير الذي نشر منه، وهنا أخصّ بالذكر ما تنشره مجلة «آمال»، لكن أعتقد أن الجزء الأكبر منه لم تُتَح له فرصة النشر بعدُ. فمن خلال اطّلاعي هذا أستطيع أن أقول أن هذا الأدب ما زال في بداياته ينطق بسملاته الأولى، ولم يتبلور بعد كحركة. هناك بعض النماذج

في الشعر والقصة بخاصّة، يمكن أن نقول عنها إنها واعدة ولا حاجة هنا لذكر الأسماء؛ المهمّ برأيي هو النشر، وهنا لا أعفي الشباب أيضا، فبكفاحهم هم يستطيعون الحصول على المزيد من المنابر الثقافية والأدبية، وبنشاطهم أيضا يمكنهم خلق حركة جديدة في الحياة الثقافية الجزائرية من خلال فرض أنفسهم واختراق الصعاب والفخاخ المنصوبة أمامهم خصوصا من أولئك الذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على الثقافة في الجزائر. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذه البذور الشابّة لا يمكنها أن تنمو وتبدع إلاّ بالمزيد من الاطّلاع على ما وصلت إليه الحركة الثقافية في المشرق العربي وفي العالم. لقد لاحظت من خلال اطّلاعي على بعض نماذج كتابات الأدباء الشباب في الجزائر أنهم يحاولون تكرار تجارب المشارقة، ولكن على نحو أقلّ نضجا. فبرغم أن الاطّلاع الشامل على ذلك ضروريّ فإن المطلوب اليومَ من هؤلاء الشباب هو الانطلاق مما وصل إليه أدب الإبداع وأدب النقد في المشرق وربما في العالَم أيضا لتجاوزه في مضامين أكثر إبداعا وأكثر تحريضا على خلق الإنسان الجديد الذي نحلم به جميعا. وعلى أية حال فإنّ الأيام كفيلةٌ بأن تصقل هذا الجيل وكفيلة أيضا بأن تثبت لنا إن كان في مستوى التاريخ أم لا.

(صدر هذا الحوار مع شهادات مجموعة من المثقفين العرب في كتاب بالقاهرة، بعنوان: علي بن عاشور والموت المبكر: حوار وشهادات» عن المركز العربي للدراسات الغربية، سنة2004. وأثبتنا الحوار فقط في هذا الكتاب).

المحتويات

تقديم الدكتور عبد القادر شرشار	ص. 07
مقدمة	ص. 13
الدراسات	ص. 25
محمد بن إبراهيم	ص. 27
محمد بن أبي شنب	ص. 49
أحمد رضا حوحو	ص. 75
مفدي زكريا	ص. 101
مالك حداد	ص. 123
عبد الحميد بن هدوقة	ص. 149
حوارات	ص. 175
رابح بلعمري	ص. 177
علي بن عاشور	ص. 195

الحقوق كاملة محفوظة

لدار الحكمة

طبع هذا الكتاب في دار الحكمة

للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

أعلام من الأدب الجزائري الحديث

أراد المؤلف الطيب ولد العروسي من هذه المحاولة أن يرد التهم الموجهة ضد اللغة العربية، خاصة على أولئك الذين يعتبرونها لغة قاصرة إن لم نقل أنها لا زالت تخطو خطواتها الأولى في الجزائر أو في الوطن العربي، حيث أنهم لا يستطيعون استيعاب حقيقة أن كثيرا من أعلام الأدب الجزائري قد تركوا بصمات هامة سواء في الأدب الجزائري، أو الأدب العربي والعالمي.

مما لا شك فيه أن الأديب الجزائري كان مرتبطا بأحداث وطنه في كل المراحل التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، وقد حقق ذاته من خلال ما كان يصبو إليه الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال.

وكان اختيار المؤلف بكل صدق وأمانة يعود إلى ضرورة إثبات الذات الجزائرية، أي إعطاء القارئ فكرة مغايرة تماما لما كان يحوم حول الشخصية الجزائرية من أحكام قاصرة أو مسبقة وعن عقم العقول الجزائرية في الإبداع، وبالتالي اعتقادهم الخاطئ أن لا وجود لأدب عربي جزائري مكتوب باللغة العربية، واستندوا في ذلك إلى أن بعض الكتاب الجزائريين كانوا يكتبون بلغة "بودلير" فقط.

بالرغم من أن الأديب الجزائري كان دائما يعانق التجديد والتطور والحداثة، إلا أنه كان متمسكا بهويته العربية، إذ أنه كتب بها وأبدع، أو حتى عندما أرغم على الكتابة باللغة الفرنسية فقد كانت لدى بعض المبدعين مجرد أداة أبدعوا بها ووظفوها في خدمة قضاياهم، وكانوا صادقين في مواقفهم ومبادئهم، كما نرى في الفصل الأول الذي خصص "للدراسات" مع المبدعين : مالك حداد، محمد بن إبراهيم، أحمد رضا حوحو، الدكتور محمد بن شنب، عبد الحميد بن هدوقة، مفدي زكريا.

أما الفصل الثاني من هذا الكتاب يحتوي على "لقاءين: اللقاء الأول مع رابح بلعمري، والثاني مع الناقد علي بن عاشور.

حاول المؤلف أن يدرس كل علم وأن يقف على أهم المراحل التاريخية والفكرية التي مر بها، واعتمد على ما كتبه وما كتب عنه قدر المستطاع، من أجل أن يكون للقارئ نظرة شاملة عن كل مبدع من هؤلاء.

الناشر

ISBN 978 - 9947 - 842 - 57 - 7

9 789947 842577

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة